القسم السابع

الحرب العالمية الثانية وما بعدها

- ١ -

عندما قررت تركيا الانضمام الى الدول المركزية فى الحرب العالمية الاولى ، كان موقفها يوم ذاك مهددا لخطوط المواصلات البريطانية ، وعندما قررت البقاء على الحياد فى الحرب العالمية الثانية فقد برت بوعدها ولم يبد منها ما يجعل البريطانيين يتوقعون موقفا معاديا ، وأكثر من ذلك انهم كانوا يأملون المعاونة فى بعض الظروف • اما ايطاليا فقد تظاهرت بحياد يخفى بين طياته عداء كامنا • بينا أثار سلوك روسيا المبهم قلق بريطانيا ومخاوفها • فلما شعرت كل من بريطانيا وفرنسا وتركيا بالاخطار التى تهددهم عقدوا فى شهر تشرين الاول من عام ١٩٣٩ معاهدة تبادل المساعدات العسكرية فى أحوال خاصة • واشترطت تركيا ان الالتزامات التى تفرضها عليها هذه المعاهدة يجب الا تضطرها للدخول بأى صراع مع روسيا • فلما أعلنت ايطاليا الحرب ظلت تركيا بحيادها متجنبة أى عمل عدائى يجرها للاختلاف مع روسيا وطلبت ان تعفى من تنفيذ الالتزامات التى تفرضها المعاهدة سابقة

الذكر • وكانت تركيا على حذر من روسيا بعد الموقف الذى وقفته من فنلنده وبولونيا ودول البلطيق • كما انها أصبحت فى وضع حرج بعد انضمام الفرنسيين فى سوريا الى حكومة فيشى • وقد ضاعف انخذال فرنسا من التزامات بريطانيا لتركيا اقتصادية كانت تلك الالتزامات أم عسكرية • فالحرب سدت جميع المسالك التجارية بوجه تركيا ، فأصبحت فى حاجة ماسة لاسواق جديدة تبيع فيها منتوجات بلادها وفي حاجة لمصادر جديدة تستورد منها ما تحتاج اليه من مواد حربية للدفاع عن سلامة بلادها • وكان على بريطانيا ان تملأ الفراغ الحاصل من عدم مساعدة دول الحلفاء الاخرى لتركيا • فكان من نتيجة ذلك ان تضاعفت التجارة البريطانية مع تركيا • فقد اشترت الحكومة البريطانية مقادير كبيرة من الفواكه التركية المجففة ومن التبغ التركى ، كما حاولت ، مع ما كانت تلقاه من مخاطر ، ان توصل الى تركيا كميات مناسبة من المواد الحربية •

- ٢ -

وفى فلسطين نشط الارهابيون العرب منهم واليهود قبيل استعار نار الحرب • وبعد اعلانها ساد البلاد هدوء نسبى • فقد وعدت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية بمساندة بريطانيا ضد المانيا • ومع ان زعماء العرب ذوى الكلمة النافذة لم يكونوا موجودين فى فلسطين عند اعلان الحرب ، الا ان تأكيدات مماثلة لتلك التى قدمها اليهود قدمت من قبل بعض الشخصيات العربية الفلسطينية • وكان اليهود يؤملون ان بريطانيا ستلغى الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٣٩ مقابل مساعدتهم لها • وما ان وجدوا ان الادارة الفلسطينية مصرة على منع انتقال الاراضى من ايدى العرب الى ايدى اليهود حتى ازدادوا

حنقا • فقاموا بمظاهرات مصحوبة ببعض الاعمال المخلة بالامن احتجاجا على الكتاب الابيض • ومع ذلك فانهم نفذوا قرارهم بشأن التعاون مع بريطانيا ضد المانيا اللا الا الاحزاب المتطرفة منهم مثل جماعة شترن فانهم باشروا عملهم الا [redacted] عام ١٩٤٠ • ومما يلاحظ ان اليهود لم يوحدوا كلمتهم الا فى أمر واحد هو مقاومة المانيا • وكان الصهيونيون يعتقدون بأن أية رغبة من الحكومة البريطانية تبديها لاعطاء العرب بعض حقوقهم انما هى « تسكين لخواطرهم » تنم عن جبن البريطانيين وخوفهم •

- ٣ -

وفى السنوات الاولى للحرب عرض اليهود استعدادهم لتجنيد جيش يهودى ، الا ان الادارة الفلسطينية رفضت عرضهم • ذلكم لان الاعتراف بوجود جيش يهودى بدلا من جيش فلسطينى ، ليس فى صالح البلاد ، ولان تأليف ذلك الجيش لمما يغيض العرب ويدفع اليهود عند نهاية الحرب الى المطالبة ببعض الامتيازات مقابل ما سيقدمونه من خدمات • ومع ذلك فقد تكونت وحدات يهودية صغيرة انضمت الى فرق أخرى غير يهودية • ولم يأخذ اللواء اليهودى شكله النهائى الا فى عام ١٩٤٤ ؛ وكان اليهود يفسرون تردد الحكومة البريطانية فى الموافقة على تشكيل اللواء اليهودى لموقف بريطانيا العدائى نحوهم • وقد تضاعف حنقهم بعد ان اقترب الالمان من حدود مصر فأصبحوا بين خطرين ، خضوعهم الى الالمان ثانية ، وانتقام العرب منهم • ولمجابهة ما قد يطرأ من ظروف غير متوقعة قام اليهود بتأليف عصابة عهد اليها أمر سرقة مقادير كبيرة من الاسلحة البريطانية ومن المتفجرات • فاستعانت تلك العصابة ببعض الجنود البريطانيين الذين يعطفون على اليهود

لتحقيق مآربها ، متناسين ان تلك الاسلحة استخدمت لمقاومة الجنود البريطانيين وللاعتداء على موظفى الحكومة الفلسطينية وعلى ممتلكاتها •

وممازاد فى تعنت اليهود وتزمتهم شدة تدفق المهاجرين اليهود على فلسطين من الاقطار الاوربية حيث كان الالمان يتبعون سياسة وحشية لافنائهم • فمنذ ان أخذ الالمان باتباع تلك السياسة واليهود يتدفقون على فلسطين لا بدافع انسانى ، بل من أجل خلق مشكلة لبريطانيا قبل الحرب ، ولكنها لم تكن توافق على قبول عدد كبير منهم الى فلسطين ، لان ذلك من شأنه ان يجعل الاكثرية العربية أقلية فيها • وليس فى هذا عدل أو حنكة سياسية والحرب العالمية قائمة وبريطانيا فى غنى عن اثارة غضب العرب عليها • ولهذا قررت الحكومة البريطانية احد أمرين اما اعادة المهاجرين الى الاقطار التى ارتحلوا عنها ، أو حجزهم فى بلد آخر خاضع لبريطانيا كموريشيوس وقبرص • وقابل الصهيونيون هذا القرار بالاحتجاجات الشديدة وبالمقاومة الارهابية • وقد لاقوا تشجيعا كبيرا من اميركا حيث عقد مؤتمر بلتيمور الصهيونى وقرر الصهيونيون فيه المطالبة بجعل فلسطين دولة يهودية ، وخلق جيش يهودى ، واطلاق باب الهجرة فى فلسطين وجعل أمرها موكول الى الوكالة اليهودية • وهذه المقررات تمثل فى الواقع السياسة التى كانت المنظمة الصهيونية تتبعها ولا زالت تصر عليها •

- ٤ -

ومع كل ما بذلته المانيا من فنون الدعاية فى العراق وفى مصر فان حكومات هذين القطرين قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع المانيا • فلما دخلت ايطاليا الحرب كان موقف بريطانيا العسكرى من الضعف درجة جرأت

كلتا الحكومتين على التلكؤ فى قطع علاقاتها الدبلوماسية مع ايطاليا • وبعد جهود قطعت الحكومة المصرية علاقاتها مع ايطاليا متبعة أسلوبا خفف من وقع الضربة عليها • اما حكومة العراق فقد رفضت ان تفعل ما فعلته مصر وسمحت للمفوضية الايطالية فى بغداد ان تبقى مفتوحة الابواب متخذة من نفسها مركزا للدعاية وللمؤامرات المحورية •

وكان ابن السعود ثابتا فى صداقته لبريطانيا وفى عطفه عليها • ومع ذلك فانه لم يعلن الحرب على دول المحور ، لان ليس ثمة معاهدة تقضى عليه بذلك ، ولان سيطرته على الاماكن المقدسة الاسلامية كانت تمنعه من اعلان الحرب على دولة ذات رعايا مسلمين • وكانت المملكة العربية السعودية طوال ايام الحرب تعتمد على بريطانيا اقتصاديا كما صارت بعد ذلك تعتمد على الولايات المتحدة فى طلب المساعدات المالية • سيما بعد ان نقصت عوائد الحج خلال سنوات الحرب نقصا بينا ، ولم تكن عوائد النفط تكفى لتسيير شؤون المملكة • ومع تلك الاوضاع الحرجة فان ابن السعود اضطر فى آخر الامر الى اعلان الحرب على دول المحور والى الانضمام الى الدول المتحدة •

- ٥ -

وفى ايران قضت القيادة البحرية للحلفاء على مشروع الشاه لتصنيع بلاده ولتسليح جيشه • فقد تعذر نقل البضائع الالمانية فى الطريق البرى عبر روسيا وان ظل هذا الطريق مفتوحا • كما حال ارتفاع أجور النقل البحرى دون نقلها بحريا • وهذا ما جعل ايران فى وضع اقتصادى حرج • ومساعدة لها عرضت الحكومة البريطانية عليها قرضا بخمس ملايين جنيه استرلينى الا ان الشاه رفض القرض عندما وجد ان بريطانيا لا تستطيع تزويده

بالسكك الحديدية والطائرات وبالاسلحة • ومع ذلك فان ايران أعلنت حيادها ، وان لم يكن الايرانيون محايدين بمجموعهم • وكانت ايران تعتبر ميثاق عدم الاعتداء المعقود بين المانيا وروسيا من الامور غير الطبيعية ، لان المانيا هى العدوة الدائمة لروسيا وان تظاهرا بالصداقة ، ولذا فانها اعتبرت المانيا صديقة طبيعية لايران • ولما كانت بريطانيا حليفة لروسيا فى الحرب العالمية الاولى ، وساعدتها فى السيطرة على ايران عام ١٩٠٧ ، فانها يجب ان تعامل المعاملة التى تلقاها روسيا • يضاف الى كل ذلك ان الايرانيين يعتبرون المانيا سوقا ملائما لاغراضهم الاقتصادية ، ومصدرا لاستيراد ما يحتاجون اليه من بضائع • ومما زاد فى اقبال الايرانيين على الالمان ، انهم كانوا مخدوعين بالدعايات الالمانية ، بانهم والالمان يشتركون بالدم الآرى • واذا ما استثنينا الاقسام الجنوبية والشرقية من ايران حيث يسود النفوذ البريطانى ، فقد كانت جميع الاقسام الباقية من ايران مناصرة لالمانيا • ولا ينكر انه لم تكن منافع شخصية للشاه من وقوفه ذلك الموقف • ولكنه أراد ان تكون بلاده بعيدة عن ويلات الحرب والا تحرم بلاده القومية التى سار على انتهاجها • وان ضغطه على شركة النفط فى العام المذكور لم يكن الا من أجل الحصول على نسبة عالية من العوائد النفطية معادلة لنسبة الكميات المباعة فى الاسواق العالمية ، وهذا مما يدل على عزمه على الا تتضرر البلاد من جراء حرب لا منفعة له بها •

- ٦ -

ومرت سنة ١٩٤٠ دون حدوث انتكاسة خطرة ، مع انها كانت سنة حرجة على بريطانيا • فالميدان الحربى بشمال أفريقيا لم تنتابه أحداث

سيئة ، وان لم يبق البحر المتوسط أمينا على عهده ، وان القطعات العديدة من الجيش الفرنسى المرابطة فى سوريا يجب ان تظل تحت رقابة قوية دائمة •

وفى أوائل عام ١٩٤١ تداعت أضعف حلقات سلسلة الشرق الاوسط ـ أى العراق ـ فقد تصرف القادة العسكريون فى العراق تصرفا بعيدا عن روح المعاهدة الانكليزية العراقية ونصها ، وحرضوا العراقيين لاغتنام الفرصة من أجل تحرير فلسطين من اليهود ، وسوريا من الانتداب • وفى نيسان من عام ١٩٤١ قام الجيش بانقلاب عسكرى تولى رئاسة الحكومة على أثره السيد رشيد عالى معتمدا على مؤازرة القادة العسكريين • وقد ظهر من تصرفات رئيس الوزارة ان العراق سيدفع الى احضان المانيا • وهذا ما جعل الحكومة البريطانية تسارع للقيام بعمل حاسم يحول دون ذلك • لهذا قررت الحكومة البريطانية ارسال لواء من الجيش الى البصرة تمشيا مع نصوص المعاهدة التى لم يستطع رشيد عالى الاعتراض عليها • وحين وصول اللواء الثانى الى مياه البصرة أصر رشيد عالى على عدم انزاله الى البر ما لم يرحل اللواء الاول • ولم يكن ثمة مبرر لهذا الاصرار ، سيما وان الفيضانات المرتفعة فى البلاد كانت تحول دون ارتحال اللواء الاول •

على ان وصول اللواء الثانى الى البصرة ، واعتقاد رشيد عالى بقرب بلوغ الالمان سوريا ، واحتلالهم لها ، دفعه الى الاسراع بحركته العدائية للحلفاء • غير ان مقاومة الجيش البريطانى فى كريت عرقلت تقدم الالمان نحو سوريا وبددت احلام رشيد عالى • وفشل حصار الجيش العراقى لمطار القوة الجوية البريطانية الواقع على بعد خمسة وخمسين ميلا من بغداد • ويعزى ذلك الى ضعف معنوية الجنود العراقيين وعجزهم عن مقاومة حامية المطار على قلة عددها • وكانت قوة الليفى الآشورية التابعة للجيش البريطانى تسند حامية

المطار ، كما ان امدادات سريعة نقلت اليها من البصرة • وفى الوقت ذاته جاءتهم النجدة مما وراء الصحراء ، من فلسطين • فأنقذت المطار ورفعت الحصار عنه وردت الجيش العراقى على أعقابه • وعندما طلب الى القوات الفلسطينية نجدة حامية المطار ، لم يكن من السهل عليها بادىء الامر جمع النجدة المطلوبة ، وان تطوع المتطرفون الصهيونيون ـ ارغون زفاى لومى لتلك النجدة • فلولا مساعدة الجيش العربى لتعذرت نجدة حامية المطار • وبانسحاب الجيش العراقى تداعت الحركة المناهضة للحلفاء فى العراق وتولى الحكم نفر من العراقيين مؤمنون بان مستقبل بلادهم رهين بنجاح الحلفاء فى الحرب التى يخوضون غمارها • وبمساعدة هذا النفر اصبح العراق مركزا لتنظيم مقاومة الخطر المحورى فى الشرق الاوسط • ومما يجب الا يغفل ان المستر ايدن وزير الخارجية أصدر فى مايس من عام ١٩٤١ ، قبيل حركة رشيد عالى ، بيانا مشجعا ينطوى على عطف بريطانيا نحو أمانى العرب للوحدة • كما اوضح انه فى الوقت الذى تساند بريطانيا أى مشروع يقترن بموافقة الاقطار العربية كافة فان المبادئة يجب ان تأتى من العرب أنفسهم •

وثمة خطر آخر ظل جاثما فى سوريا • ففى فترة الاضطرابات بالعراق ، لم تكتف السلطات الفرنسية فى سوريا بوضع المطارات السورية تحت تصرف الالمان بل قدمت الذخائر الحربية الى رشيد عالى ، ونقلتها بقاطراتها الى العراق • ولهذا اضطرت القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة الهجوم على جيش حكومة فيشى ودحره • وقبيل زحف تلك القوات نشر الجنرال كاترو بيانا وعد به نيابة عن الجنرال دى غول منح لبنان وسوريا حرياتهما واستقلالهما ، كما وعد باجراء مفاوضات لعقد معاهدة من أجل تحقيق تلك

الاغراض • واشتركت الحكومة البريطانية بتلك الوعود التى وضحتها فرنسا الحرة ببيان آخر نص على ان جيش فرنسا الحرة يدخل الى سوريا ولبنان لوضع نهاية لنظام الانتداب فيهما • وفى أواسط تموز استسلمت قوات حكومة فيشى وزال الخطر المتوقع منها فى سوريا ولبنان وبذلك تحول الاهتمام الى نقطة حرجة أخرى هى ايران •

- ٧ -

وفى هذه المرحلة اشتركت روسيا بالحرب بعد ان هاجمتها حليفتها المانيا • ولا ريب ان رضا شاه لم يكن يود نجاح روسيا فى الحرب خوفا من اعتدائها على بلاده ، ولكن ليس ثمة دليل على مساعدته الالمان وان كانت الصحافة الايرانية التى تسيطر عليها الحكومة تعنى بنشر أخبار الجبهة الالمانية ، أكثر من عنايتها بأخبار جبهات الحلفاء • كما ان الحكومة الايرانية لم تتخذ التدابير التى تطمئن الحلفاء بان الالمان لن يستطيعوا اضعاف سلطتها فى بلادها كما فعلوا ذلك فى بلاد النروج وهولندا قبيل غزوها • يضاف الى ذلك انه كان من الصعب تخيل الصورة التى كان رضا شاه يرسمها عن العالم • ومع انه كان يتمتع بمواهب عظيمة فقد ظل أميا ويضطر الى الاعتماد على غيره من الناس لمعرفة ما يجرى فى العالم من أحداث • ولشدة مخاوفه من الاجانب وابتعاده عنهم ، اقتصرت صلته بالناس على وزرائه وكبار موظفيه • فكان هؤلا ينقلون اليه ما يسره من الاخبار فقط • ولم يكن لممثلى بريطانيا وروسيا السوفياتية من أثر عليه لانهما قلما كانا يحضيان بمقابلته • وللحد من نشاط الالمان فى ايران اضطرت الحكومة البريطانية الى الفات نظر الحكومة الايرانية نحو تصرفات بعض الضباط الالمان الموجودين فى ايران متسترين

وراء اسماء تجارية يشك فى وجود مؤسساتها • ومن بين اولئك الضباط من ساهم فى اثارة الاضطرابات فى العراق • ومع ذلك فان الشـاه رفض ان يصغى الى تلك الاخبار مصرا على عدم وجود رتل خامس فى بلاده •

وظل الشاه حتى آخر أيام حكمه يعتقد بانه مسيطر على جميع انحاء بلاده عن طريق موظفى حكومته ورجال شرطته ؛ ولا ريب ان تلك الثقة لم تكن فى موضعها • لان رجال الحكومة والشرطة كانوا فى وضع اقتصادى متدنى من قلة ما كان يدفع اليهم من رواتب ، ولهذا كانوا لا يترفعون عن استغلال وظائفهم فى سبيل الحصول على ما يمكنهم من العيش فى مستوى مناسب • ولا شك ان استغلال الموظفين لوظائفهم هو الذى مكن مفتى القدس ورشيد عالى وغيره من قادة الحركة العدائية للحلفاء فى العراق ، من الالتجاء الى ايران بعد فشل حركتهم ، والسكنى فى طهران عددا من الشهور دون ان تمنعهم الحكومة الايرانية من اتيان الاعمال العدائية التى تضر بقضية الحلفاء• يضاف الى ذلك ان الشاه رفض ان تتخذ تدابير لحجز سبع سفن تجـارية محورية التجأت الى بندر شاه بور • وكانت السلطات البريطانية مقتنعة بان بعض تلك السفن تحمل مقادير من المواد المتفجرة فى مواضع خفية بمخازنها • ولهذا كان يخشى ان تهرب تحت ستار الظلام ليغرقها بحارتها عند مدخل شط العرب ، فيحال دون وصول السفن البريطانية الى العراق ونقل نفط عبادان الى الاقطار التى تحتاج اليه • وقد طلب الى السلطات الايرانية تشديد الرقابة على هذه السفن ، وان تحتجز بحارتها أو ان تنزع منها بعض آلاتها الرئيسية • ولكن الحكومة الايرانية رفضت هذا الطلب مدعية ان تلك السفن لا تحمل مواد متفجرة وان الشرطة الايرانية على أهبة الاستعداد لمنع وقوع أى حادث تخشى الحكومة البريطانية حدوثه • وقد اثبتت الحوادث بطلان

ذلك الادعاء • فعندما دخلت الجيوش البريطانية جنـوب ايران قام بحارة سفينتين من تلك السفن بتفجير ما كانت تحمله من مواد متفجرة واغراقها •

ولا ريب ان الحكومة البريطانية كانت على صواب فيما اتخـذته من تدابير من اجل حماية مصانع النفط فى جنوب ايران من الاخطار التى كان فى الامكان تفاديها لو ان ايران لم تصر على بقائها على الحياد • سيما وان نجاح الحلفاء فى الحرب يتوقف الى حد كبير على انتاج النفط والمواد النفطية • فكانت بريطانيا تخشى ان يقوم جواسيس الالمان الموجودين فى ايران أو الذين يهبط منهم بالمظلات ، كما حدث فعلا ، بتخريب الاجهـزة والمكـائن اللازمة للصناعة • كذلك كانت تخشى من ان تدبر دول المحـور مؤامرة لاغتيال الشاه لاشاعة الفوضى والاضطرابات فى البلاد ، فتسنح الفرصة بذلك للقيام بانزال على طهران وضم الجيش الايرانى الى المحور • ولو تم ذلك فى تلك الظروف الحرجة التى اجتازتها ايران عام ١٩٤٢ ، والالمـان فى بلاد القفقاز من طرف وعلى أبواب الاسكندرية من طرف آخر ، للاقت مصالح الحلفاء فى الشرق الاوسط اعظم الاخطار •

وربما قيل ان السبب الرئيسى للاحتلال الانكليزى الروسى لايران ، الرغبة فى فتح طريق أمين لنقل المساعدات الى روسيا بدلا من الطـريق البحرى الى مورمنسك • الا ان السبب الحقيقى للاحتلال الانكليزى الروسى هو عجز الشاه عن ايقاف نشاط الالمان فى اتخاذه التدابير التى تحول دون قيامهم بأى انقلاب فى البلاد • ويذهب الكثيرون من الايرانيين ومن الكتاب الاجانب الى ان اهداف الحلفاء يمكن تحقيقها دون اللجوء الى الاحتلال • ويكفى لتحقيق تلك الاهداف التهديد بالاحتلال ؛ ولكن التهديد ليس بذى تأثير فى النفوس كالاحتلال • يضاف الى ذلك ان قيام الحلفاء بارسال مقادير

عظيمة من الذخائر الحربية الى روسيا لم يكن ممكنا لو لم يسيطروا على خطوط المواصلات الايرانية، ويضعوها تحت حراسة فرق من جيوش الحلفاء ، واتخاذهم التدابير الفعالة للقضاء على جاسوسية الاعداء ، المتغلغلة فى جميع انحاء ايران • وكما لا يخفى ان من شأن الاحتلال احداث بعض الاضطراب فى الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد المحتلة ، ولهذا رغبت الحكومة البريطانية فى التقليل من تأثير ذلك الاضطراب بقبولها الاقتراح القائل باستبدال الاحتلال العسكرى بعقد معاهدة بين الدول المعنية بالامر ـ بريطانيا وروسيا وايران • ولم يستاء الايرانيون من دخول الجيوش الاجنبية بلادهم ، لانهم كانوا يتوقعون ذلك ، كما كانوا يتوقعون حدوث احد امرين آخرين ، اما ان يتنازل الشـــاه عن العرش بمحض ارادته ، او ان يضطره الحلفاء على ذلك • ومع ان بريطانيا كانت تخشى اثارة الشعب الايرانى عليها اذا سمحت بابقاء الشاه على عرشه ، فان الحلفاء لم يطلبوا اليه التنازل • وان الشاه تنازل دون اكراه ، بعد أن شعر باستياء الشعب لتصرفاته ؟ وتلاشى الامل فى مساندة بريطانيا له بعد ان أخذ القسم الايرانى من محطة الاذاعة البريطانية ينتقد تصرفاته وموقفه من الحلفاء انتقادا مرا • ومما عجل فى تنازله عن العرش ، تقدم الجيوش الروسية المرابطة فى قزوين ، المدينة التى تبعد تسعين ميلا عن طهران واتجاهها نحو العاصمة • وقام الجيش الروسى بهذه الحركة نتيجة الاتفاق القاضى بقيام الجيشين الروسى والبريطانى باحتلال ضواحى طهران ، لكى يعجلوا بطرد ممثلى دول المحور من ايران وبالقاء القبض على اعضاء الممثلية الالمانية فى طهران وتسليمهم الى الحلفاء • وما ان ابلغ الشاه بزحف الجيوش الروسية نحو العاصمة حتى سارع الى كتابة صك تنازله عن العرش تاركا طهران ومتوجها نحو القسم الجنوبى من بلاده • ومن ثمة غادر البلاد على ظهر باخرة بريطانية • وخلفه

ابنه الاكبر محمد رضا • ومع ان الشاه الجديد كان فى الثالثة والعشرين من عمره فقد ابدى شجاعة فائقة فى التعاون مع الحلفاء وفى القضاء على الحياة الاوتوقراطية التى خيمت على البلاد طوال حكم أبيه متبعا نظاما للحكم مبنى على أسس برلمانية •

وانتهت المفاوضات بين الدول الثلاث بالتوقيع على معاهدة ثلاثية فى كانون الثانى من عام ١٩٤٢ ، تقوم ايران حسبها بمساعدة الحلفاء وتقديم جميع التسهيلات الممكنة لمرور الجيوش والذخائر الحربية من بلادها • وابداء المعاونة اللازمة لتوفير ما تحتاجه تلك الجيوش من مواد محلية ومن عمال • كذلك سمح للحلفاء بالاحتفاظ بما يرونه مناسبا لهم من القوات فى ايران ، على ان يتعهد الحلفاء بسحب قواتهم بعد فترة لا تزيد على ستة اشهر بعد انتهاء الحرب ، أو من عقد الصلح ، اى الامرين يتم التوصل اليه اولا • وقبل نهاية الحرب انضمت فرق فنية اميركية الى الجيوش البريطانية والروسية المرابطة فى ايران لتتعهد نقل المساعدات الاميركية الى روسيا • وكانت تلك الفرق تشرف على تيسير القطارات من جنوب ايران حتى طهران ، وكذلك تشرف على النقل البرى بواسطة السيارات من الجنوب الى الشمال •

- ٨ -

واحتلال الحلفاء لايران اثار مخاوف تركيا حتى بعد ان تم عقد المعاهدة الثلاثية • فما ان اجتازت الجيوش الروسية الحدود الايرانية وتوغلت نحو قلب البلاد حتى اصبح الروس يجاورون تركيا من الناحيتين الشرقية والشمالية • يضاف الى ذلك ان تركيا كانت تخشى تسرب الدعاية الروسية الى المناطق الكردية من بلادها ، سيما وقد وقعت المناطق الكردية الايرانية تحت

النفوذ الروسى • ولم تكن سنة ١٩٤١ من السنين المباركة بالنسبة للعلاقات الانكليزية التركية • فالضغط المحورى وضغط الظروف الاقتصادية بلغا غايتيهما • واضطرت تركيا الى عقد معاهدة عدم اعتداء مع بلغاريا كما عقدت معاهدة صداقة مع المانيا ، تضمنت تأكيدات بعدم الاعتداء على الطرفين المتعاقدين ويتعهدا بحل جميع المشاكل ذات المصالح المشتركة بطرق ودية • وكانت الحكومة البريطانية على بينة من الوضع الحرج الذى صارت اليه تركيا ، كما كانت تقدر الظروف العسيرة التى كانت تجتازها • ومع ان تركيا كانت تشعر بريطانيا سرا بجميع مراحل المفاوضات التركية الالمانية ، الا ان بريطانيا ظلت فى ريبة من موقف تركيا • ومما زاد فى مخاوفها اصرار تركيا على تزويد المانيا بالكروميوم المادة الحيوية للمجهود الحربى • ولم تتوقف عن ذلك الا فى نيسان من عام ١٩٤٤ •

- ٩ -

وتحسن وضع الحلفاء فى مصر تحسنا كبيرا بعد عودة النحاس باشا ، زعيم حزب الوفد ، الى الحكم فى شباط من عام ١٩٤٤ • ومع ان بريطانيا استعملت بعض الضغط لاحداث ذلك التغيير ، فان الشعب المصرى تلقى عودة النحاس برضا وحماس • ولا ريب ان وجود حكومات صديقة فى مصر والعراق وايران وسوريا جعل الشرق الاوسط فى استقرار مع وجود الالمان على مقربة من طرفيه الشمالى والغربى • ومما يسر ان الحكومة المصرية بقيت صامدة فى احرج الاوقات ، وخاصة عندما كان رومل على بعد اقل من مائة ميل من الاسكندرية • وربما كان المصريون يفضلون البريطانيين المعروفين لديهم على الايطاليين غير المعروفين ، ذلكم لانه كان مقررا انه فى حالة انتصار

دول المحور ستكون مصر من نصيب موسوليني •

وبعد ان حطمت قوات المحور بشمال افريقيا فى مايس من عام ١٩٤٣ ، اتجه تيار الحرب اتجاها كفل سلامة الشرق الاوسط • وزاد فى اطمئنان ايران ان مؤتمر طهران المنعقد فى تشرين الثانى من العام المذكور شدد على تحقيق الوعود التى قطعتها كل من روسيا وبريطانيا لايران فى معاهدة عام ١٩٤٢ ، وايدها الرئيس روزفلت • ومع ان الوضع العام للحلفاء تحسن تحسنا كبيرا ، فان تركيا رفضت طلب الحلفاء للاشتراك فى الحرب مدعية بان خطوط دفاعها لم تكن بالقوة الكافية ، وان موقفها الحيادى يخدم مصالح الحلفاء كما يؤمن مصالحها الذاتية • فانها ما دامت على الحياد تستطيع حماية سوريا وفلسطين من اعتداء المحور • والتاريخ وحده حكم عادل فى سلامة قرار تركيا هذا • غير ان الحكومة البريطانية شعرت بأنها لا تستطيع الاستمرار بارسال مواد حربية الى بلد محايد كتركيا فى وقت هى احوج ما تكون اليها فى بلدان محاربة أخرى • وهذا ما جعل الحكومة البريطانية تتوقف عن ارسال المؤن الحربية الى تركيا ، وتسحب البعثة العسكرية البريطانية منها •

- ١٠ -

وكان من نتائج قلة وسائل الشحن البحرى ، واضطراب اوضاع التجارة الخارجية خلال سنوات الحرب ، ان جابه الشرق الاوسط مصاعب اقتصادية جمة • ولكى تخفف وطئة تلك المصاعب اقامت الحكومة البريطانية فى القاهرة عام ١٩٤١ مركز تموين الشرق الاوسط[١] • وساهمت الولايات

(١) Middle East Supply Centre.

المتحدة فى تدعيم هذا المركز بعد عام من تأسيسه • وكانت الاهداف التى يتوخاها هذا المركز الاقتصاد فى استخدام وسائل الشحن البحرى ، وانماء المصادر الاقتصادية المحلية ، وتنظيم توزيع ما يفيض عن تلك الاقطار مما يتوفر لديها من منتجات اقتصادية وما تستورده من بضائع من بريطانيا واميركا • فمما قام به هذا المركز تشجيعه زراعة القمح فى مصر ، والاقلال من زراعة القطن ، وتوسيعه المجال الزراعى فى سوريا • فبمساعدة شركة من جنوب افريقيا ذات اختصاص بجغرافية مياه السقى، امكن ايصال مياه الينابيع فى الجبال لارواء بضع آلاف من الافدنة من اراضى السهل الساحلى لم تزرع فى الماضى لتعذر اروائها • وبذلك زادت الثروة العامة للبلاد زيادة محسوسة ثابتة • كذلك وزع مركز التموين مقادير عظيمة من الموادالمستوردة الخاضعة لنظام الاعارة والتأجير ، كالسكر والشاى والاقمشة والمواد الطبية • وقد تم نقل جميع هذه المواد ببواخر الحلفاء التى كانت تتعرض لمخاطر جد عظيمة قلما كان يشعر بها مستهلكوها ، وحتى اذا ما ادركوا مبلغ تلك المخاطر فانهم قلما يكترثون لها • يضاف الى ذلك ان مركز تموين الشرق الاوسط ساهم بتقديم المساعدات الفنية لامكان دراسة المشاكل الزراعية وغيرها من المشاكل الاقتصادية ، كما ساهم فى مكافحة الجراد والقضاء على أخطاره البالغة • وحتى المملكة العربية السعودية رحبت بالمساعدات البريطانية والمصرية لمكافحة اخطار الجراد • وفى ايران كانت مكافحة الجراد على نطاق واسع جدا ساهم فيها خبراء بريطانيون عاونهم عدد ليس بقليل من افراد الجيش الهندى ومن الموظفين الايرانيين • كما اشتركت الطائرات السوفياتية فى المكافحة برشها المواد السامة من اعالى الجو على المناطق الموبوءة •

ولكثرة ما كانت تنفقه جيوش الحلفاء المرابطة فى اقطار الشـــرق

الاوسط من اموال اخذت بوادر التضخم النقدى تظهر فى هذه الاقطار • ولم تقم حكوماتها بما يخفف من وطئة ذلك التضخم • ذلكم لان السيطرة على التموين وعلى أسعار السلع كان يتطلب ادارات جديدة وحازمة ليس من السهل على بلدان الشرق الاوسط ايجادها • كما ان فرض ضرائب عالية على الدخل لم يكن ليرضى الاثرياء ممن بيدهم مقاليد الحكم • ولهذا أخذت الاسعار بالارتفاع السريع ، فنجم عن ذلك ان اتسعت الشقة بين الاغنياء والفقراء اتساعا كبيرا مخطرا •

وكانت هذه الظاهرة جد بينة فى ايران ولا سيما بعد تنازل الشـــاه عن العرش وتصدع الجهاز الحكومى من أثر ذلك ، سيما وان قوة الحكومة الايرانية كانت مستمدة من قوة الشاه • وعجزت السلطات الايرانية عن جمع الحنطة من المناطق المنتجة لها بالسعر الذى حددته الحكومة وعن توزيع ما يجب توزيعه منها فى المناطق المحتاجة لها • فاضطر الحلفاء الى تمـوين ايران بالحنطة • وقد بلغت كميات الحنطة التى قدمتها الحكومة البريطانية لايران نيف وتسعين ألف طن من الحنطة خلال عامين من احتلال ايران • يضاف الى ذلك ان الحكومة البريطانية عينت على نفقتها الخاصة ، عددا كبيرا من الموظفين لمساعدة السلطات الايرانية فى جمعها الحاصلات الزراعيـــة ولاستلام الكميات الواجبة التسليم الى الحكومة من الحنطة بالسعر المقرر • وبعد ان استخدمت الحكومة الايرانية الدكتور ملسبو[1] وغيره من الخبراء الاميركان لاعادة تنظيم الوضع المالى والاقتصادى فى البلاد ، اشترك الموظفون البريطانيون وحتى الايرانيون المعينون من قبل السلطات البريطانية فى معاونة

---

(١) Dr. Millspaugh.

اولئك الخبراء الاميركان • ولو امكن تعاون الحلفاء الثلاثة فى اتخاذ تدابير اقتصادية فعالة من اجل اصلاح الوضع فى ايران لصارت ظروفها الاقتصادية العامة على خير ما يؤمل منها • غير ان الروس فضلوا اتباع سياسة اقتصادية خاصة • ويعتبر اصرار الروس على تنفيذ سياسة انفرادية من الامور التى يؤسف لها ، سيما وان القسم الشمالى من البلاد خاضع لاحتلالهم وهو غنى بالمواد الغذائية التى تفتقر اليها الاقسام الباقية من البلاد •

وعلى العموم استمرت العلاقات البريطانية الايرانية تتقدم تقدما حسنا • ولما كانت دوائر الاستخبارات البريطانية لا تعتمد كل الاعتماد على الشرطة الايرانية فى اقتفائها أثر الجواسيس والمظليين الالمان والقاء القبض عليهم ، ولان الايرانيين كرماء بالنسبة الى اولئك الذين يستنجدون بهم ، فانهم لم يقدروا ضرورة اعتقال الايرانيين الذين لهم ميول عدائية نحو الحلفاء ، ولذا فان الحلفاء اضطروا انفسهم الى البحث عن الجواسيس الالمان واعتقال الايرانيين الموالين الى دول المحور • ولا ينكر ان عددا ليس بقليل من الساسة البارزين ومن كبار الموظفين الايرانيين تعاونوا تعاونا وثيقا مع الحلفاء ، وان آلاف عديدة من العمال الايرانيين استخدمهم الحلفاء فى بناء السكك الحديدية وتعبيد طرق المواصلات وانشاء الموانىء وفى غيرها من الاعمال التى كان الحلفاء يحتاجون اليها فى مجهودهم الحربى • فمن أمثلة ذلك ان قوافل سيارات النقل التابعة للشركة التجارية للمملكة المتحدة والتى يقودها سواق وميكانيكيون ايرانيون نقلت مقادير من المساعدات المرسلة الى روسيا اكثر وفرة مما نقلته قوافل السلطات العسكرية الاميركية أو البريطانية أو الروسية • وفى اوائل عام ١٩٤٤ تقدم الى الحكومة الايرانية ممثلو احد شركات

النفط البريطانية وممثلوا شركتين من شركات النفط الاميركية طالبين منح شركاتهم امتياز التحرى عن النفط فى جنوب ايران • وصادف ان تقدمت الحكومة السوفياتية اثناء ذلك طالبة منحها حق التحرى عن النفط فى المناطق الشمالية واستغلال مساحات واسعة من تلك المنطقة اذا ما عثرت على النفط فيها • فما كان من الحكومة الايرانية الا ان تقرر تأجيل النظر بجميع تلك الطلبات الى ما بعد الحرب • وتلقت الشركات البريطانية والاميركية قرار الحكومة الايرانية برضى ؛ فهى حكومة مستقلة ولها ان تتصرف ببلادها كما تشاء • غير ان الدعاية السوفياتية هاجمت رئيس وزراء ايران هجوما عنيفا مما اضطره الى الاستقالة كى لا يضع بلاده موضعا حرجا • وخشية ان يتفاقم الامر بين الدولتين ، أسرع البرلمان الايرانى الى تشريع قانون يمنع منح أى امتياز للنفط الى أية دولة أجنبية أو الى أى شخص ما لم يقترن المنح بموافقة البرلمان • كما فرض القانون عقوبات مشددة على من يفاوض من أجل ذلك بدون تخويل من البرلمان •

وفى هذا الظرف الدقيق ظهرت حركة استقلالية فى مقاطعة ازربيجان الايرانية حيث تعسكر الجيوش السوفياتية بمقتضى معاهدة ١٩٤٢ ، وطالب زعماء الحركة بمنح مقاطعتهم استقلالا ذاتيا • واعتقد الايرانيون ان الباعث لتلك الحركة هم الروس • بينما أعلن الروس انها لم تكن الا حركة ذاتية ظلت كامنة بتأثير سياسة الضغط التى كان يتبعها رضا شاه ؛ فلما زالت تلك السياسة أخذت الحركة بالظهور •

- ١١ -

ووضعت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ نهاية للضغط الروسى على جيران روسيا الجنوبيين تركيا وايران والذى دام بضع سنوات • ولكن ما ان انقشع

الخطر الالمانى عن روسيا عند نهاية الحرب العالمية الثانية حتى عادت الى سياستها القديمة ، فأخذت تضغط على جيرانها من جديد • ومما يجب الا ينسى ان الالمان حاولوا جهدهم اثارة مخاوف كل من روسيا وتركيا فى نوايا الواحدة نحو الاخرى • فادعوا انهم وجدوا من بين الوثائق التى وضعوا ايديهم عليها فى باريس دلائل تثبت ان الاتراك اتفقوا مع انكلترة وفرنسا على القيام بهجوم جوى على باكو فى حالة قيام روسيا بالهجوم على فنلندة • وفى الوقت ذاته كانوا يزعمون بعد ان باشروا بالهجوم على روسيا ، وبعد ان وضعوا نهاية للاتفاق الالمانى الروسى ، ان الروس كانوا يلحون لمعرفة الموقف الذى ستقفه المانيا اذا ما قامت روسيا بضم المضايق الى ممتلكاتها • كذلك ان روسيا كانت تشكو من موقف تركيا الحيادى ففيه مساعدة للالمان • وكان رد تركيا على ذلك ان الاتفاقات العسكرية التى عقدتها مع الحلفاء دليل على بطلان ذلك الزعم • والغريب ان روسيا أخذت تطالب بمقاطعتى قارص واردهان وقد سبق لروسيا ان ردت هاتين المقاطعتين الى تركيا بعد الحرب العالمية الاولى لانها مقاطعات تركية • كما طالبت بمنحها قاعدة بحرية على البسفور لتشترك فى الدفاع عن المضايق • وقد تقدمت روسيا بطلبها هذا الى حلفائها فى مؤتمر بوتسدام معتبرة ان العرض الذى قدمته بريطانيا بالاشتراك مع الولايات المتحدة بما يخص حرية الملاحة فى المضايق عند حالتى السلم والحرب غير كافية لتأمين المصالح الروسية •

ولكى لا تبدى بريطانيا والولايات المتحدة معارضتها لمطاليب روسيا غير العادلة طلبت الدولتان من الحكومة التركية الاسراع بعقد مؤتمر يعيد النظر بميثاق مونترو المعقود عام ١٩٣٦ ، سيما وان فيه ما يفسح المجال لاعادة النظر بمواده كلما دعت الظروف الى ذلك • ومع ان التعديلات التى اقترحتها

بريطانيا والولايات المتحدة ليست بذات أهمية كبيرة الا ان عقد المؤتمر سيفسح المجال أمام روسيا لازالة ما كانت تشعر به من مخاوف بالنظر لموقف تركيا • ومع ذلك فأن الروس رفضوا فى مذكرة تهديدية اقتراح تركيا لاعادة النظر فى الميثاق المذكور •

وفى الوقت ذاته كانت صحافة روسيا وأذاعتها تقوم بحرب دعاية واسعة ضد تركيا • وان حكومة جورجيا التابعة لروسيا أخذت تطالب بضم جزء كبير من بلاد الانضول اليها• واتهمت روسيا تركيا بأنها سمحت لبريطانيا باقامة قواعد عسكرية بالقرب من المضايق ، وشجعت الشيوعيين اليونانيين ليقوموا بحركات اعتدائية على الحدود التركية اليونانية ؛ الامر الذى دعى تركيا الى تشديد الرقابة على تلك الحدود أيضا • ولم تكن تركيا لتكترث لتهديدات روسيا ولكنها كانت مضطرة الى الاحتفاظ بجيش كبير على أهبة الاستعداد • يضاف الى ذلك ان تكاليف التجنيد العام الذى دعت اليه تركيا خلال سنوات الحرب اثقل كاهل الاقتصاد التركى • وقد اشارت الى ذلك المذكرة التى وجهها الرئيس ترومان الى الكونغرس الاميركى فى مارت من عام ١٩٤٧ • فمما جاء فى تلك المذكرة ان تركيا طلبت مساعدات مالية من بريطانيا ومن الولايات المتحدة ليتسنى لها القيام بما يمكنها من المحافظة على سلامة استقلالها • ولم يكن فى وسع الحكومة البريطانية بعد اليوم تقديم المساعدات المالية لتركيا • وان الولايات المتحدة الاميركية وحدها تستطيع ان تمد لها يد المساعدة • وغرض تلك المساعدات « ضمان تطور الشعوب تطورا بعيدا عن تيارات الحرب ، وانماء مؤسساتها الحرة ، وضمان سلامة استقلالها من الحركات الاعتدائية التى تهدف الى فرض نظم جماعية ، تلك النظم التى من شأنها ان تضعف أسس السلام ، وبالتالى سلامة الولايات المتحدة » • وتلبية

لطلب الرئيس ترومان قرر الكونغرس تخصيص اعتمادات وافرة لمساعدة تركيا (وكذلك اليونان) ، كما أقر تلبية طلب الاقطار المتخلفة للخبراء المدنيين والعسكريين ليساهموا فى اعمارها .

- ١٢ -

واذا ما كان الضغط الروسى على تركيا ضغطا خارجيا ، فانه كان بالنسبة الى ايران ضغطا داخليا . ومرد ذلك وجود الجيوش الروسية فى شمال ايران ، وان كان وجودها لا يعنى احتلال البلاد احتلالا عسكريا . وقد سبق لبريطانيا وروسيا ان اتفقتا على رفض طلب حكومة ايران بشأن سحب جيوشهما من بلادها حالما يتحقق اندحار المانيا . لان الشرق الاوسط بنظر هاتين الدولتين حلقة هامة من حلقات سلسلة مواصلات الحلفاء لدحر اليابان . على ان بريطانيا وايران اتفقتا على سحب جميع الجيوش الاجنبية من الاراضى الايرانية بعد انقضاء ستة أشهر من تاريخ تسليم اليابان ، أى بعد اليوم الثانى من مارت عام ١٩٤٦ . وكانت روسيا السوفياتية مؤيدة لذلك الاتفاق بدليل الرسالة التى وجهها وزير خارجيتها الى وزير خارجية بريطانيا فى ايلول من عام ١٩٤٥ ؛ والتى يقول فيها ان الاتحاد السوفياتى يعلق « أهمية بالغة » على تنفيذ الالتزام المذكور . وقد اضطرت الحكومة الايرانية الى رفع شكواها الى هيئة الامم المتحدة قبل حلول شهر مارت سنة ١٩٤٦ لتصرف روسيا فى ايران . فقد اشتدت عنفا حركة ازربيجان ضد حكومة طهران . الامر الذى اضطر الحكومة الايرانية الى ارسال قوة من الجيش بقصد تقوية حامية تبريز . ولكن السلطات السوفياتية ، مع ادعائها بانها محايدة ، اوقفت تلك القوة فى قزوين ومنعتها من التقدم . وفى كانون الاول عندما استولى

الثوار فى ازربيجان على المواقع الهامة من المدينة منع الروس خروج الحامية الايرانية فى تبريز من معسكراتها •

وقد حاول البريطانيون والاميركان ايجاد حل لهذه المعضلة ولكنهم فشلوا ، كما عجزت الحكومة الايرانية من اقناع الحكومة السوفياتية لاجراء مفاوضات بشأن ازربيجان • ولهذا تقدمت ايران بشكواها ضد روسيا الى مجلس الامن ، على أساس ان تدخل السوفيات فى الشؤون الداخلية لايران من شأنه ان يؤدى الى احتكاك دولى • وقد حاول ممثلا روسيا السوفياتية واوكرانيا فى المجلس التذرع باتهامات لا صحة لها ، زعموا فيها بان الحكومة البريطانية تتدخل بشؤون اليونان واندونيسيا الداخلية • فلما لم تجد تلك الاتهامات نفعا أعلنت الحكومة السوفياتية استعدادها لمتابعة المفاوضات التى قطعتها الحكومة الايرانية • فوافق المجلس على استمرار المفاوضات المباشرة بين الطرفين المتنازعين على أن يشعر المجلس بتطورات تلك المفاوضات •

وحل اليوم الثانى من شهر مارت سنة ١٩٤٦ دون ان تنته المفاوضات • بينما ارتحلت الجيوش البريطانية فى ذلك اليوم وسبقتها قبل ذلك الجيوش الاميركية • اما الروس فقد أعلنوا بأن جيوشهم فى الوقت الذى تنزح فيه عن القسم الشمالى الشرقى من ايران فانها ستظل مرابطة فى المقاطعات الشمالية الاخرى الى ان ينجلى الموقف • وقد « انجلى » الموقف فى شهر نيسان عندما استطاع الروس الحصول من رئيس الوزراء قوام السلطنة على وعد خطى بانه سيتقدم الى البرلمان بلائحة قانون يجيز تأليف شركة النفط الايرانية السوفياتية • وستكون اسهمها موزعة بين الدولتين بنسبة ٥١ ٪ لروسيا و ٤٩ ٪ لايران ،وان تحل القضية الازربيجانية حلا سلميا وبروح مراعاة حقوق السكان • وبعد ان تم الاتفاق على ذلك سحبت ايران شكواها من

مجلس الامن • وبعد مرور شهرين من التاريخ الذى حددته معاهدة عقدت بين الدولتين للانسحاب ، نزحت الجيوش الروسية فعلا عن ايران • وقد تأخر تقديم لائحة القانون السابق الذكر نتيجة تأخر اجراء الانتخابات العامة ولاسيما فى ازربيجان • لان اعادة السيطرة الايرانية على تلك المنطقة تطلب وقتا طويلا ـ حتى آب من عام ١٩٤٧ ، فلما رفض المجلس هذا القانون بأكثرية ساحقة ، حملت الدعاية الروسية حملة عنيفة مركزة على قرار المجلس ، وعزته الى نكوث رئيس الوزارة الايرانية بوعده ، وانه تآمر مع شركة النفط الايرانية الانكليزية • والحقيقة ان الدعاية الروسية عزت موقف ايران هذا الى كل شيء عدا السبب الحقيقى ، وهو خوف ايران من نفوذ التأثير الروسى الى بلادها ، ومن تدخل الروس فى الشؤون الداخلية اذا ما سمح بتأليف شركة نفط يسيطر عليها الروس •

وبالوقت ذاته أخذت الدعاية السوفياتية فى مهاجمة المصالح البريطانية • وكان حزب تودة الذى يترسم الخطى السوفياتية يعاون ويشجع تلك الدعاية • فدبر اضرابا بين عمال شركة النفط الايرانية الانكليزية ، وسادت فى البلاد دعاية مفادها ان شركة النفط تستخدم العرب بدلا من الايرانيين • وحدوث اضراب فى مؤسسات النفط بمدينة كركوك فى العراق يدل على أمرين : احدهما وجود اتصال بين عمال شركة النفط الايرانية الانكليزية وعمال شركة نفط العراق ، والاخر ان رؤساء الشعب المهيمنة على شؤون العمال فى الشركتين لم يحسن اختيارهم • سيما وان عمال شركات النفط يتمتعون بشروط استخدام لا يتمتع بها غيرهم من مستخدمى المؤسسات الاخرى فى ايران والعراق •

كذلك اتهمت الدعاية السوفياتية بريطانيا بانها أثارت الاضطرابات فى

جنوب ايران وحرضت القبائل العربية عام ١٩٤٦ ضد الحكومة المركزية • والحقيقة ان عشائر جنوب ايران كانت ترفض دائما سيطرة طهران وان حركتهم تلك لم تكن الا انتفاضة على ما كان يفرضه عليهم رضا شاه من ضغط وشدة • ويعزو البعض حركة تلك القبائل الى نزعة قومية لمقاومة سياسة طهران المستوحاة من الحكومة السوفياتية ، ومن أعوانها فى ايران ـ اعضاء حزب تودة • ومهما كانت الاوضاع الراهنة يوم ذاك فى ايران ، فان وجود حكومة قوية مما يدعم المصالح البريطانية • ولهذا السبب ولغيره من الاسباب قررت الحكومة البريطانية عام ١٩٤١ وجوب الكف عن تشجيع أية قبيلة ايرانية ضد حكومتها مهما كانت أسباب تذمرها من حكومتها • ومنذ ذلك الحين ظلت الحكومة البريطانية أمينة على تنفيذ ذلك القرار • وكم انزعجت السلطات البريطانية فى ايران بادىء الامر عندما وجدت ان الحكومة الايرانية ميالة الى تصديق التقارير السوفياتية بأن اثنين من الموظفين البريطانيين اتصلوا بالقبائل فأثاروهم ، ولذا فقد طلبت سحب ذينك الموظفين • الا ان الحكومة الايرانية بعد أن تأكدت من بطلان المزاعم السوفياتية لم تلح على طلبها السابق ، مما يدل على ان ذلك الطلب لا يمثل الميل الحقيقى للحكومة الايرانية نحو الحكومة البريطانية أو نحو الموظفين البريطانيين •

وبعد ان قررت حكومة الولايات المتحدة الاميركية مساعدة ايران لدعم كيانها الداخلى ، تبدل الوضع فيها وأخذت الدولة تزداد قوة • ففى كانون الثانى من عام ١٩٤٨ منحت الولايات المتحدة ايران قرضا بمبلغ خمس وعشرين مليون دولار ، ليتيسر لايران شراء مواد حربية من الولايات المتحدة الاميركية يحتاج اليها الجيش والدرك الايرانى ، القوتان اللتان تعهدت تنظيمها مجموعة من الضباط الاميركان منذ سنوات عدة • وما ان تأكدت

الحكومة السوفياتية من قبول ايران ذلك القرض حتى قدمت احتجاجا شديد اللهجة مدعية بأن المستشارين الاميركان يعدون ايران لان تكون قاعدة للولايات المتحدة وانهم ينشؤون مطارا بالقرب من الحدود الروسية ، كما انهم يقيمون استحكامات عسكرية عندها • وان موقف ايران هذا مخالف لاحكام المعاهدة الروسية الفارسية المعقودة عام ١٩٢١ ، التى نصت على انه يجوز لروسيا ان تبعث بجيوشها الى ايران اذا ما استخدمت ايران قاعدة عسكرية لحركة معادية لروسيا • ومع ان الفقرة التى تمسكت بها روسيا حددت مفعولها الرسائل المتبادلة بين ايران والحكومة القيصرية ، فأن جميع التهم المضمنة فى تلك المذكرة ردتها حكومة واشنطن ردا شديدا • وفى شهر مايس من عام ١٩٤٨ قررت الولايات المتحدة ان تبعث الى ايران بمقادير من الاسلحة التى لا يمكن ان تستخدم للاعتداء على دول أخرى ، بضمنها بعض الدبابات والمدافع وطائرات مقاتلة ، بلغت كلفتها ستين مليون دولار • وكان الغرض الاول من هذه المساعدة دعم سلامة البلاد الداخلية • فالاستقرار الداخلى لبلدان الشرق الاوسط كافة وايران خاصة من الشؤون التى تعنى بها الولايات المتحدة الاميركية ، وتهتم بها •

وفى عام ١٩٤٩ بدأت المفاوضات بين بريطانيا وايران بشأن ناحيتين هامتين من نواحى المصالح البريطانية فى ايران ــ البنك البريطانى وشركة النفط • فان امتياز البنك الامبراطورى فى ايران ادرك نهايته ، ومع ذلك فقد سمح له بمتابعة أعماله حسب شروط وافقت عليها الحكومة الايرانية • اما امتياز شركة النفط الانكليزية الايرانية فانه لا ينتهى الا فى عام ١٩٩٣ • وبالنظر للسياسة التى انتهجتها الحكومة البريطانية بشأن توزيع الارباح والتى أقرتها الشركة ، فانها أبدت استعدادها لان تدخل فى مفاوضات مع الحكومة

الايرانية تهدف منها تذليل المصاعب الناشئة عن تنفيذ تلك السياسة • وبطلب من الحكومة الايرانية فان مجال المفاوضات اتسع حتى شمل المشاكل الاقتصادية الاخرى • وفى تموز من عام ١٩٤٩ تم الاتفاق على جميع النقاط المختلف عليها • ومما اتفق عليه الطرفان زيادة عوائد النفط زيادة تجعل مدخولات الدولة من النفط مصدرا هاما لتمويل وانماء مشاريعها الاقتصادية •

- ١٣ -

عندما بدأت الحرب العالمية الثانية كانت سوريا ولبنان تحت السيطرة الفرنسية • فلما شارفت الحرب على نهايتها ، نالت سوريا كما نال لبنان استقلالها الكامل • وانتهت الوعود الفرنسية بمنح سوريا استقلالها وانهاء الانتداب ببيان اصدرته فرنسا بأنها لن تتخلى عن « صداقتها » أو المكانة الممتازة التى استطاعت الحصول عليها خلال قرون مضت • كذلك أعلنت بريطانيا بعد اخماد مقاومة جيوش فيشى فى سوريا ولبنان ، ان ليس لها مطامح فى هذين البلدين ، وانها تعترف بمكانة فرنسا الممتازة فى القطرين المذكورين • ولما كان نظام الحكم خلال مدة الانتداب الفرنسى جد معقدا ، ولا ينسجم مع حياة الفرد الحر فان الاتجاه العام كان لتغييره • فما أن أصر الفرنسيون على اجراء انتخابات حرة حتى جاءت النتائج خلاف ما كانوا يتوقعون • فقد فاز القوميون فوزا ساحقا • فلما استلموا مقاليد الحكم اشغل الوطنيون الوظائف التى كان الفرنسيون يشغلونها من قبل • ولم يرض الفرنسيون عن هذه النتائج ، سيما وقد وجدوا أنفسهم معزولين عن وطنهم الاصلى ، أقلية خارج بلادهم ، ولهذا ترددوا فى التوقيع على الوثيقة التى تضع نهاية لعلاقاتهم بهذه البلاد ، تلك العلاقات التى بدأت منذ العهد الصليبى • فما كان منهم الا ان

قاموا بعمل لم يكن متوقعا ، ولا يدل على حكمة ، وهو القبض على رئيس وزراء لبنان واعضاء وزارته ، واودعوهم السجن • ولم يطلق سراحهم ويعادوا الى مناصبهم الا نتيجة للضغط البريطانى الشديد •

وانتهت الازمة بأن عقدت اتفاقات بين الفرنسيين واللبنانيين والسوريين، نقلت السلطات التى كان الفرنسيون يمارسونها سابقا الى ابناء البلاد • ومع ان الكتائب العسكرية المؤلفة من الوطنيين سلمت الى الحكومات الجديدة ، الا ان الطرفين لم يتوصلا الى اتفاق بشأن « الجيوش الخاصة »[1] • وقد عزى الفرنسيون الاسراع بحل هذه المشاكل الى الموقف المعادى الذى وقفه الوزير البريطانى • ومع ان خلف الوزير المذكور حاول جهده التوسط بين الفرنسيين والحكومات الوطنية فى سوريا ولبنان الا انه عجز عن تقريب وجهات نظر الطرفين ، لان الفرنسيين كانوا يصرون على الابقاء على ما كان لديهم من قواعد عسكرية وجيوش فى البلدين • ومما زاد فى الامر تعقيدا وصول الجيوش السنغالية الى سوريا فور عقد الهدنة مع الالمان مما أثار مخاوف السوريين واللبنانيين وجعلهم يعتقدون بأن الفرنسيين بعد ان زال عنهم الخطر الالمانى يهدفون من استقدامهم تلك الجيوش اتباعهم سياسة الشدة • وكان من أثر تصلب الفرنسيين فى سياستهم هذه ، ان حدثت معارك بين الطرفين فى مواضع مختلفة من البلاد ، بلغت شدتها عندما قصف الفرنسيون دمشق بمدافعهم الثقيلة ، قصفهم لها عند احتلالها قبل نيف وعشرين عاما • ولما كان استقرار الشرق الاوسط من الامور الهامة بالنسبة لحرب الحلفاء مع اليابان ، فان القيادة العامة البريطانية أصدرت أوامرها الى السلطات الفرنسية بوجوب ايقاف المعارك ، وحجز عساكرها فى ثكناتهم • وقد اضطرت السلطات الفرنسية

(1) Tropes Speciales. (١)

الى الرضوخ لرغبة القيادة البريطانية فى نهاية عام ١٩٤٦ ، بعد ان استنجدت حكومتا لبنان وسوريا بهيئة الامم المتحدة • فانسحبت جميع الجيوش البريطانية والفرنسية من هذا الجزء من الشرق الاوسط •

ويعزو الفرنسيون فشلهم فى سوريا الى مؤامرة دبرها البريطانيون ، متناسين ما ارتكبوه من أخطاء فى تلك البلاد ، ومتجاهلين ثورة الشرق على الغرب • ومما زاد فى حنقهم استخدام الحكومة السورية بعض المستشارين البريطانيين ، وقد اعتبر الفرنسيون هذا العمل انتهاكا لتعهدات سوريا بانها ستعطى المكانة الاولى الى فرنسا والفرنسيين • ومما يجب ان يوضح بهذا الصدد ان ذلك الالتزام مقترن بالتزام آخر تلكأت فرنسا فى تنفيذه ، وهو الاعتراف باستقلال كلتا الدولتين ـ سوريا ولبنان • ومما لا ريب فيه ان البريطانيين لا يترددون فى الاعتراف بأى تفضيل تمنحه حكومتا سوريا ولبنان الى الفرنسيين • غير ان الضغط على تينك الدولتين لمنح الفرنسيين التفضيل المذكور ، أو السماح لفرنسا لاذلال السوريين واللبنانيين على حساب الاضرار بخطوط مواصلات الحلفاء مع الشرق فأمور فيها نظر • ومن الغريب ان الفرنسيين كانوا دوما يصرون على زعمهم بان سلسلة المؤامرات البريطانية التى بدأت عند احداث حكومة فيصل فى دمشق عام ١٩١٨ ، هى التى حرمتهم من حقهم التاريخى فى هذا الجزء من الشرق • والشكوك المتبادلة بين فرنسا وانكلترة قديمة وبالغة حدودها القصوى • ففى أوائل القرن الثامن عشر كان الانكليز النازحون الى اميركا يزعمون بان الجزويت الفرنسيين كانوا يعلمون الهنود بان انكلتره ليست الا مقاطعة تابعة الى ملك فرنسا ، وهذا ما دعى السلطات الانكليزية الى استقدام طائفة من زعماء الهنود الى انكلترة ليتثبتوا بأنفسهم من ان لا علاقة لملك فرنسا بانكلترة • وربما كانت مزاعم الانكليز

عن الجزويت ليست بأكثر صدقا من التهم التى كان الفرنسيون يتهمون بها الضباط الانكليز ، بانهم كانوا يحرضون العرب على مهاجمة السيارات الفرنسية ، واغتيال من فيها حتى وان كانوا من النساء •

- ١٤ -

وما ان أدركت مصر ان الحلفاء كاسبون الحرب ، حتى أخذت تطالب بتعديل المعاهدة المصرية البريطانية ، مقابل ما قدمته لبريطانيا من خدمات خلال سنوات الحرب• وكانت مدة المعاهدة عشرين عاما، الا ان احدى موادها جوزت تعديلها بعد اتفاق من الطرفين المتعاقدين ، وعلى ان ينسلخ من عمر المعاهدة عشرة أعوام ؛ وبمعنى آخر انه لا يجوز اجراء مفاوضات لتعديلها قبل كانون الاول من سنة ١٩٤٦ • ولكى يبرر المصريون طلبهم تعديل المعاهدة قبل التاريخ المحدد للتعديل ، أعلنوا ان التوقيع على المعاهدة جرى بظروف قاهرة ، وانهم اكرهوا على التوقيع عليها • متناسين ان الظروف القاهرة الناجمة عن وجود الجيوش البريطانية فى مصر كانت أخف وطئة على المصريين من الظروف التى كانت تهددهم باحتلال موسولينى لبلادهم ، ذلك الاحتلال الذى حالت دونه بريطانيا وحلفاؤها • وقد أغتيل رئيس الوزراء الذى تولى الحكم بعد النحاس باشا ، أى بعد ان نحيت وزارة الوفد فى تشرين الاول عام ١٩٤٤ ، لانه دفع مصر لاعلان الحرب على المانيا • وكان من أثر ذلك ان قدمت الحكومة المصرية فى كانون الاول من عام ١٩٤٥ طلبا خطيا لتحقيق هدفين رئيسيين : سحب جميع الجيوش المصرية البريطانيـة من مصر ، والاعتراف « بوحدة وادى النيل » بضـم السـودان الى التاج المصرى • وأعلنت الحكومة البريطانية استعدادها للمفاوضة من أجل سحب جيوشها

من مصر ؛ كما انها اوضحت بجلاء ان ذلك لن يتم ما لم تتخذ التدابير من أجل تحقيق التعاون المتبادل الذى اشترطته معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وما لم ينته أمد المعاهدة • وقام الطرفان بمفاوضات لم تبلغ غاية حاسمة ؛ ذلكم لان الوفد المصرى المفاوض لم يرض بقبول أية قاعدة عملية للتعاون المتبادل • فآثر المصريون الرجوع بقضيتهم الى هيئة الامم المتحدة ، معتقدين بان الهيئة ستأخذ بوجهة نظرهم • ولكن سرعان ما اصيبوا بخيبة أمل بعد ان قررت الامم قرارها المعروف بشأن فلسطين • ومع ذلك فان المفاوضات لم تنقطع الا بسبب اختلاف وجهات النظر بشأن السودان • فقد كانت وجهة نظر الحكومة البريطانية ان يترك للسودانيين حرية تقرير مصيرهم ، سواء ارغبوا بالانضمام الى مصر أم بالاستقلال عنها ؛ بينا كان المصريون يرغبون بربط السودان بمصر ربطا نهائيا ، تاركين للسودانيين أمر اختيار شكل الاتحاد المطلوب •

ومع توقف المفاوضات ، فان الحكومة البريطانية سحبت جميع جيوشها من القاهرة ومن جميع المناطق الاخرى عدا منطقة قنال السويس • وبدلا من ان يقدر المصريون موقف بريطانيا هذا ، فانهم قاموا بمظاهرات عنيفة وصاخبة اشترك فيها طلاب المدارس على اختلاف مراحل دراستهم • فكان من أثر ذلك ان اغتيل عدد من الجنود البريطانيين وبعض الساسة من المصريين • ودبرت مؤامرة للقيام بحركة اغتيالات واسعة • ولتقدير مبلغ شدة هذه الحركات لابد من التنويه بان المصريين كانوا يعاملون خصومهم من المصريين بعنف وبشدة • وقد بلغت نسبة الاغتيالات فى تلك الفترة ، اذا ما قيس عدد الاغتيالات بسكان القطر ، خمسين مرة للنسبة ذاتها فى المملكة المتحدة •

ولم يكن المصريون على بينة من مدى تأثير هيئة الامم المتحدة وحيادها ؛ ولهذا غابت عنهم الحقائق المتعلقة بالدفاع عن الشرق الاوسط ؛ فظلوا على

اعتقادهم بان الهدف من الاحتفاظ بالجيوش البريطانية فى منطقة القنال ، هو الضغط على حكومة مصر ، والتدخل فى شؤونها الداخلية • كذلك ظهر للطرفين ان مسألة السودان لا يمكن حلها عن طريق المفاوضات والاتفاقات ، لانها تتعلق بتثبيت حقوق طرفين غير متفقين • فقد كان المصريون يطالبون « بوحدة وادى النيل » ، لان اعباء الحملة التى وجهت لاعادة احتلال السودان ، سواء فى المال والرجال ، كانت تقع على كاهل المصريين ، بينما كان البريطانيون يدعون بان التنظيم الادارى والمالى والعسكرى الذى حظيت به مصر ، يعود الفضل فيه الى البريطانيين أنفسهم ؛ ولولا ذلك التنظيم لما تيسرت اعادة احتلال السودان • يضاف الى ذلك ان الجيوش البريطانية التى اشتركت فى الحملة المصرية هى التى تلقت المسؤولية الكبرى من الحملة ؛ وان التقدم الذى حاز عليه السودان خلال نصف قرن ، كان بفضل الادارة البريطانية • وكان من الاجدر الاخذ بتلك الاعتبارات الا ان المصريين تغاضوا عنها • ويمكن تلخيص معضلة السودان بانها انماء الحكم الذاتى فى هذا القطر انماءا يسمح للسودانيين بتقرير ما اذا كانوا يرغبون باقامة دولة مستقلة ، ام ان يؤلفوا اتحادا أو أئتلافا مع مصر •

ومما زاد فى تعقيد مشكلة السودان ان القسم الجنوبى منه تستوطنه قبائل بدائية تختلف كل الاختلاف عن سكان الشمال • فهؤلاء مسلمون من أصل عربى وليس من تقارب بينهم وبين أهل الجنوب فى اللغة والمعتقد • ومن عوامل تعقيد المشكلة اصرار المصريين وعنادهم وتغافلهم عن تطور السودان سياسيا ، ووعى أهله وعيا قوميا • فان التعديلات التى اقترح المصريون ادخالها على الدستور السودانى ، كانت لا تنسجم مع الموقف الذى وقفته الحكومة البريطانية ، وهذا ما أدى الى تنفيذ الدستور فى البلاد بمعاونة

البريطانيين دون المصريين • وقد قاطع الانتخابات أحد احزاب الشمال الذى كان يطالب بالاتحاد مع مصر ، ومع ذلك فقد أخذت الانتخابات مجراها الطبيعى ، فجاء المجلس المنتخب دليلا على شعور السودانيين نحو بلادهم ومسؤولياتهم نحو أنفسهم • ومما لا ريب ان بحث المعضلة من ناحيتها الاقتصادية سيلقى ضوءا على المعضلة • لقد أدرك المصريون ان السيطرة على السودان لا تعنى السيطرة على النيل ، لان السيطرة على هذا النهر العظيم ، تتوقف الى حد كبير على الحبشة وعلى يوغندة ، وسبق للحكومة المصرية ان وافقت على قيام الحكومة البريطانية بمشروع للرى عظيم على النيل فى يوغندة وفى أعالى السودان • ومع ان اكمال هذا المشروع يتطلب مدة تقرب من ربع قرن الى ان المنافع التى سيجنيها ابناء مصر والحكومة المصرية ستكون جد كبيرة •

- ١٥ -

وبحسب أحكام معاهدة ١٩٣٠ كان العراق حليفا لبريطانيا • وسيبقى حليفا لها ما دامت المعاهدة المذكورة نافذة المفعول مدة خمس وعشرين عاما من تاريخ دخوله عصبة الامم فى عام ١٩٣٢ • ومع ذلك فان العراق ، شأن مصر ، حاول ان يجعل من الحرب وسيلة تمكنه من الحصول على بعض الامتيازات من الحكومة البريطانية • ومع ان العراق تناسى حركة رشيد عالى فى سنة ١٩٤١ ، تلك الحركة التى لو قدر لها النجاح لصارت سببا لاطالة الحرب وللاضرار بمصالح الحلفاء ، فان محاولته الحصول على بعض الامتيازات كانت من الامور الطبيعية ، وتلبية لرغبة العراق أجرت الحكومة البريطانية مفاوضات لتعديل معاهدة سنة ١٩٣٠ ، تكللت بالتوقيع على معاهدة

بورتسموث فى شهر كانون الثانى لسنة ١٩٤٨ ؛ تلك المعاهدة التى نصت على وجوب السعى من اجل ايجاد سلام وصداقة متبادلة بين الدولتين ، وان التحالف بينهما يجب ان يستمر • وأهم ما ورد فى هذه المعاهدة المادة المتعلقة بالقواعد الجوية • فقد اتفق الطرفان على ان القواعد الجوية « من العناصر الاساسية للدفاع عن العراق نفسه ، وعن السلامة الدولية • كما انها حلقة فى المواصلات الرئيسية لكلى الفريقين » • وبحسب هذه المادة منحت المعاهدة القوة الجوية الملكية البريطانية حق اشغال القاعدتين العراقيتين الرئيسيتين « حتى يحين الوقت الذى يتم فيه تنفيذ معاهدات الصلح مع جميع دول الاعداء » • ومع ان الحكومة العراقية المخولة بالتوقيع على هذه المعاهدة كانت تستند على أكثرية فى البرلمان العراقى ، فانها لم تكن تمثل الشعب التمثيل الحقيقى ، لفقدان النظام الحزبى المستند على مبادىء مقررة ومعلن عنها • وأكثر من ذلك ، كانت تسود البلاد موجة من التذمر ناجمة عن سوء ادارة مشروع الخبز ، فاستغلت المعارضة هذا التذمر ووجهت ما كانت تنظمه من مظاهرات نحو المعاهدة الجديدة • وبعد ان استفحل الامر ، استقالت الوزارة ، ووعد الوصى على عرش البلاد الشعب بان معاهدة سنة ١٩٣٠ لن تعدل •

- ١٦ -

بعد استسلام الالمان ، حول الصهيونيون أهتمامهم نحو يهود أوربا الذين نجو من مذبحة هتلر • فان الفئة التى استطاعت البقاء فقدت جميع ما تملك ، واصبحت فى درجة بالغة من العوز والفاقة • حتى ان الكثيرين من يهود أوربا اصيبوا بأمراض عصبية وجسمية نتيجة ما لاقوه من أهوال • وكان الصهيونيون يطالبون بفتح أبواب فلسطين على مصاريعها لاولئك اليهود •

ولم يكن متوقعا من أناس نكبوا بأموالهم وفقدوا أقاربهم وأصحابهم فى المعتقلات النازية ، ان يتصرفوا تصرفا هادئا متزنا بالنسبة لقضية الهجرة الى فلسطين • وقد لاقت العناصر اليهودية المتطرفة تأييدا من جهات متعددة • فان كلا المرشحين لانتخابات رئاسة الولايات المتحدة الاميركية فى عام ١٩٤٤ ، ايدا المشروع المعروف « بمنهج بلتمور »[1]، كما ان الرئيس ترومان وجه طلبا الى الحكومة البريطانية للسماح بهجرة مائة الف يهودى من أوربا الى فلسطين • كذلك ان انتصار حزب العمال فى انتخابات عام ١٩٤٥ ، زاد فى نشاط الصهيونيون زيادة كبيرة ، سيما وان حزب العمال يعطف عطفا شديدا على الوطن القومى اليهودى ، وأكثر من ذلك ان اليهود اعتبروا الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ « غير قانونى » ، لانه لم يقترن بمصادقة لجنة الانتداب فى عصبة الامم ، وافترضوا ان الحكومة البريطانية استخدمته كتدبير حربى مؤقت لاستمالة العرب ، وسوف تتنكر له حالما تنتهى حاجتها لتأييد العرب لها فى الحرب • فلما أدركوا ان الحكومة البريطانية لا زالت تتمسك بالتزاماتها التى فرضها عليها صك الانتداب ، وانها لا تسمح بالهجرة المطلقة الى فلسطين ، وجهت المنظمات الصهيونية فى أوربا واميركا فيضا من الهجرة غير المشروعة نحو فلسطين • وبالوقت ذاته بدأ الارهابيون بتخريب الجسور وخطوط السكك الحديدية وغيرها من المؤسسات العامة؛ وانتهت حركتهم بتأليف عصابات منظمة تقوم بأعمال ارهابية • وكان موقف الوكالة اليهودية متباينا بالنسبة الى هذه الاعمال • وكما يتضح من الوثائق التى حصلت عليها السلطات البريطانية ، ان الوكالة اليهودية بلندن كانت على اتصال وثيق بالاعمال الارهابية التى قام بها الصهيونيون عام ١٩٤٥ • فكانت تعليمات الوكالة

---

(١) Biltmore Programme.

للارهابيين ان يتحاشوا من « الاصطدام العام » والاقتصار على « الفعاليات المنفردة » • وفى بعض الظروف كانت الوكالة تحاول التعاون مع السلطات الادارية ، مظهرة استنكارها للاعمال الارهابية ، ومع ذلك فانها كانت تبدى عجزها عن ايقاف تلك الاعمال ، لكونها لا تقر السياسة البريطانية •

ومن الغريب ان العرب واليهود كانوا متفقين على فكرة واحدة تتلخص بان القضية الفلسطينية بسيطة سهلة الحل ، فكان العرب يدعون ان كل ما يطالبون به ايقاف الهجرة اليهودية ومنح سكان البلاد بوضعهم الراهن حكما ذاتيا • بينما كان اليهود لا يرضون من الحكومة البريطانية بغير اطلاق الهجرة اليهودية من غير تحديد ، والوقوف بوجه العرب ورد مطاليبهم • ولا ريب ان العرض المتقدم فى الفصول السابقة عن الجهود المتوالية التى كانت الحكومة البريطانية تبذلها من أجل ايجاد تسوية للقضية الفلسطينية تظهر ان المعضلة لم تكن من البساطة التى كان الطرفان يتصورانها • وان فشل المحاولات التى بذلتها بريطانيا وغيرها من الدول بعد الحرب العالمية الثانية ، زاد فى مصاعب ايجاد حل للمعضلة • وقد سبق تلك المحاولات ان انتدبت سبع لجان بريطانية ، وقدمت ثمانية تقارير تبحث عما يجب ان يتبع من سياسة بصدد تلك المعضلة المعقدة • وجاءت تلك المحاولات مثبتة انه ليس من اليسير ايجاد حل يرضى عنه الطرفان ، وانه ليس ثمة دولة أو طائفة من الدول ، باستثناء روسيا والدول الخاضعة لها ، كانت مستعدة لفرض حل على العرب واليهود •

وقامت لجنة بريطانية اميركية بمحاولة جديدة ، كان يؤمل منها ، بما ضمته من شخصيات عالمية ان تتوفق لايجاد حل للمعضلة • ولكن مما يؤسف له ان تقريرها الذى نشر فى مايس من عام ١٩٤٦ جاء مخيبا للآمال • فان

اللجنة بعد ان وضعت مبدأ عاما للقضية ، يتلخص بان فلسطين يجب الا تكون دولة عربية أو دولة يهودية ، أوصت بتوصيات حاولت فيها تلبية طلبات كلا الفريقين • ووجهت سلطة الانتداب الى ما نص عليه صك الانتداب ، تلك النصوص التى أصبحت غير قابلة للتطبيق ، منذ نيف وعشر سنوات • فمن التوصيات المتناقضة التى اوصت بها اللجنة تسهيل الهجرة اليهودية وجعل الظروف ملائمة لتحقيق ذلك الهدف بحيث لا تحول دون تأمين حقوق السكان الاخرين ومكانتهم • كما انها أوصت بادخال مائة الف يهودى الى فلسطين خلال عام ١٩٤٦ ، وتركت لبريطانيا سلطة تنفيذ تلك السياسة • وقبل ان يتم بحث هذا التقرير بجملته ، أيد رئيس الولايات المتحدة الاميركية بشدة اقتراح اللجنة بشأن ادخال مائة الف يهودى حالا الى فلسطين • اما الحكومة البريطانية فقد أعلنت عن رغبتها لمعرفة مدى استعداد الولايات المتحدة للمساهمة بما يجب تحمله من مسؤوليات عسكرية ومالية يتطلبها تنفيذ توصيات اللجنة الانكليزية الاميركية • وتحقيقا لذلك عقد الخبراء البريطانيون اجتماعا مع لجنة وزارية اميركية أوفدت الى لندن للغرض ذاته ، وانتهت تلك المشاورات بوضع أسس مشروع حكومة اتحادية فى فلسطين مؤلفة من قسمين مستقلين ، قسم عربى وآخر يهودى • ولم يرض العرب أو اليهود عن « مقترحات مورسن » المبتناة على المشروع المذكور • وموقف العرب واليهود هذا جعل الحكومة البريطانية أن تقرر فى شباط من عام ١٩٤٧ عرض القضية الفلسطينية على منظمة هيئة الامم باعتبارها وريثة عصبة الامم •

ولم تنل هيئة الامم نجاحا أكثر مما أصابته بريطانيا فى محاولاتها منفردة أو مشتركة مع الولايات المتحدة • فقد قررت لجنتها الخاصة التى الفت لغرض البحث عن حل مرض قرارا اجماعيا فى آب من عام ١٩٤٧ بوجوب

انهاء الانتداب فى أول فرصة ممكنة ، على ان يحافظ على الوحدة الاقتصادية لفلسطين • وعندما عرض قرار اللجنة على الهيئة العامة ، حبذت أكثرية الاعضاء مشروع التقسيم بينما ذهبت الاقلية الى ايجاد دولة فدرالية • وعلى أثر ذلك القرار أعلنت الحكومة البريطانية انها لا تستطيع فرض سياسة لا يقرها العرب واليهود على السواء • وما دام ايجاد حل مرض من الامور المتعذرة فانها مضطرة الى ان تتخذ الخطوات اللازمة لسحب الجيوش البريطانية من فلسطين ، ووضع نهاية للادارة البريطانية فيها فى أول فرصة ممكنة • وقد حدد موعد للانسحاب من فلسطين فى اليوم الخامس عشر من شهر مايس عام ١٩٤٨ • وفى تشرين الثانى من عام ١٩٤٧ أقر مجلس هيئة الامم مشروع التقسيم وفى شهر مارت من عام ١٩٤٨ اعترفت الولايات المتحدة بان التقسيم لا يمكن تحقيقه بطرق سلمية ، ولذلك فانها أوصت بوضع فلسطين تحت وصاية هيئة الامم لفترة موقتة • ولكن ما ان انسحبت القوات البريطانية والموظفون فى شهر مايس من عام ١٩٤٨ حتى أعلن تكوين دولة اسرائيل اليهودية ، وسارعت حكومتا الولايات المتحدة وروسيا الى الاعتراف بها • بينما ترددت الحكومة البريطانية بادىء الامر فى الاعتراف بها ، لانها لم تكن واثقة من قوة اسرائيل على البقاء ومن مكانتها الدولية ، ولهذا اكتفت بالاعتراف بها كأمر واقع فى شهر كانون الثانى من عام ١٩٤٩ عندما شارفت الحرب بين العرب واليهود على نهايتها •

وانتهت الحرب التى أثارها اعلان دولة اسرائيل ، بصالح الجهة التى كانت تتمتع بتفوق بوحدة الهدف ، وبالمقدرة على التنظيم وبالمهارة العسكرية • يظاف الى ذلك ان اليهود استقتلوا من أجل تحقيق قضيتهم • اما معرفة المسؤول عن « الخطأ » الذى أدى الى اثارة المعارك فى فلسطين فأمر يحدده

مدى الرجوع الى المراحل التأريخية للقضية الفلسطينية • وليس من مجال فى هذا البحث لاستعراض الحوادث التى وقعت فى الايام الاخيرة للانتداب أو الايام الاولى من حياة دولة اسرائيل • كما انه ليس من السهل علينا ونحن فى أواسط عام ١٩٥٠ ان نتوصل الى نتائج مقنعة عن مسببى تلك الاحداث • ويكفى ان نورد هنا ان اسرائيل بدأت أولى أعمالها بالتعبير عن شكرها للولايات المتحدة ولروسيا ، وبابداء رغبتها فى ايجاد علاقات دولية مع الدولتين • ولم تتقدم لبريطانيا بشىء ، وسكوتها هذا ينم عن عداء دفين نحو بريطانيا • ومع ذلك فليس من اليسير اصدار حكم عادل اليوم عن وجهات نظر كل من هذه الدول • على انه مما يجب الا يغفل ان اليهود كانوا ضحية دعاياتهم • فانهم عندما وجدوا أنفسهم بين الارهاب النازى ، واصرار بريطانيا على تفسير صك الانتداب تفسيرا لا ينسجم ونواياهم ، قاموا بحملة دعاية واسعة ضد بريطانيا فى العالم كله وفى الولايات المتحدة الاميركية على وجه التخصيص • تلك الدعاية التى جعلت البعض من يهود بريطانيا يتسائلون هل كان ثمة فائدة من شنق شترايخر ـ سفاح اليهود ـ ما دامت بعض سمومه انتقلت الى أقلام ضحاياه ! •

ولم يكن من الصعب على الصهيونيين ان يثيروا الكراهية نحو بريطانيا ولا سيما فى الولايات المتحدة • فقد انطلت دعاياتهم على الكثيرين حتى شملت من بيدهم مقاليد الامور • وأحسن مثال على ذلك ان الرئيس روزفلت ابدى فى عام ١٩٣٩ ان من أسباب معارضته للكتاب الابيض البريطانى « تفوق هجرة العرب الى فلسطين منذ ١٩٢١ بعددها على الهجرة اليهودية خلال تلك الفترة » ، فاذا ما وقع رئيس الولايات المتحدة بمثل هذا الخطأ الفاحش ، وتأثر بمزاعم بعيدة عن الحقيقة ، فهل نتوقع من الرجل العادى أن تكون

له وجهة نظر صائبة ، ومحايدة بقضية جد معقدة كالقضية الفلسطينية ؟ ولا ننسى كانت الظروف مواتية لان يظهر الصهيونيين اليهود بمظهر الضحية للتآمر الانكليزى العربى • بخلاف ما كان يدعيه العرب الذين كانوا لا يجدون من يستمع الى شكواهم أو من يتفهم قضيتهم ، وفى ظروف كانت اليهودية العالمية تفرض تأثيرها البالغ من أجل كسب عطف الرأى العام العالمى •

وما هى المصاعب التى جعلت من القضية الفلسطينية عقدة لا تحل الا بقوة السلاح ؟ فمن أولى المصاعب ادعاء كل من العرب واليهود بأحقية قضيته • فاذا ما استثنينا مدعى الصهيونيين بشأن ما يسمونه بحقوقهم التاريخية ، فانهم كانوا يدعون بان بريطانيا أعلنت وعد بلفور لتضمن مساعدة اليهودية العالمية خلال سنوات الحرب العالمية الاولى • وان اليهود مقابل ذلك قدموا لها المساعدات المطلوبة منهم • ومع ان وعد بلفور ضمن بصك الانتداب فان فرض الانتداب البريطانى على فلسطين لم يكن بصالح الصهيونية • اما العرب فكانوا يدعون بانه لم يكن لبريطانيا الحق فى تقديم أية وعود بشأن فلسطين الى اليهود فى عام ١٩١٧ ، ما دامت فلسطين جزءا من المنطقة التى سبق لبريطانيا فى عام ١٩١٦ ان وعدت باستقلالها •

وأى الفريقين كان على صواب فى مدعاه ؟ ان الكاتب بالنظر للاسباب المتقدمة الذكر يعتقد بان المنطقة التى وعدت بريطانيا العرب باستقلالها لم تكن تشمل فلسطين • الا ان الكثيرين من الساسة الانكليز يرفضون هذا الرأى ويؤيدون العرب فى مطاليبهم • اما مدعى اليهود بشأن المساعدات التى يزعمون تقديمها خلال الحرب ودرجة أهمية تلك المساعدات فأمر فيه نظر • فاذا صح قيام اليهود بتقديم مساعدات كبيرة الاهمية لبريطانيا ، كما يعتقد البعض

من الساسة الانكليز ، فان مدعاهم يصح ان يكون سلاحا ذا حدين • فاذا ما كانت المنشورات التى تضمنت وعد بلفور ، والتى ألقيت من الجو على الاقسام المزدحمة باليهود فى المانيا والنمسا ، ذات تأثير فى اليهود ووجهتهم توجيها فى صالح الحلفاء ، الا يعنى ذلك ان وعد بلفور كان عاملا من عوامل اثارة الكراهية والبغضاء نحو اليهود فى المانيا ، تلك الكـراهية التى بلغت ذروتها فى عهد الحكم النازى ؟ اما الزعم القائل بان فلسطين يجب ان تسلم الى بريطانيا حتى وان لم يكن ثمة مشروع صهيونى فأمر مشكوك فيه • كذلك ان الرأى القائل بان بريطانيا استفادت فائدة مادية من انتدابها على فلسطين فأمر غير صحيح ؛ حتى وان حاولت بريطانيا استغلال فلسطين لمصالحها المادية • ذلكم لان نظام الانتداب ، والاتفاق بين بريطانيا والولايات المتحدة بشأن الانتداب على فلسطين ، كانا يحولان دون ذلك ، واذا قيل ان فلسطين استخدمت قاعدة حربية ، فان ذلك كان لصالح الحلفاء العام •

وثمة صعوبة أخرى كبيرة الاهمية ، هى الغموض الوارد فى نص وعد بلفور • فما هو المدلول للعبارة التالية : « اقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين » • أتعنى ان عددا كبيرا من اليهود يجب ان يدخلوا الى فلسطين بحيث يصبح اليهود فيها أكثرية ؟ أم تعنى غير ذلك ؟ فاذا ما ذهبنا الى ما ذهب اليه المستر لويد جورج بأن وعد بلفور يستهدف ذلك الهدف ، فان الشك يحوم حول ذلك المذهب ، بدليل ان حكومة المستر لويد جورج رفضت ان تصيغ وعد بلفور صياغة يفهم منها تأمين مصالح اليهود وحدهم • وعلاوة على ذلك فان صك الانتداب فرض على بريطانيا تحقيق أمرين اولهما ان على بريطانيا ان تنمى المؤسسات ذات الحكم الذاتى فى فلسطين ، وثانيهما انها ملزمة ، فى الوقت الذى تسهل السبيل للهجرة اليهودية ، الا تغمط حقوق الطوائف

الاخرى من السكان والا تضعف مكانتهم • ولنا ان نتسائل هل فى الامكان تحويل أقلية يهودية الى أكثرية دون ان تغمط حقوق الطوائف الاخرى من السكان وان تضعف مكانتهم ؟ وكيف يمكن أمر المحافظة على حقوق الطوائف الاخرى واليهود يعلنون بانهم لن يرضوا ان يكونوا أقلية فى فلسطين ، البلد الذى يعتبرونه « بلدهم » لارتباطهم التاريخى به ، ويزعمون ان ليس للعرب ان يغضبوا ان اصبحوا أقلية فيه ، لانهم ينالون دائما تأييد الاقطار العربية المجاورة لفلسطين •

واذا ما كان مقررا للعرب ان يصيروا أقلية بالنسبة الى اليهود ، افلم يكن من الواجب اشعارهم بذلك القرار منذ البداية ؟ فالكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ لم يتطرق لهذه الناحية ، ولم يفسر وعد بلفور ذلك التفسير الا بعد صدور الكتاب الابيض بعشرة اعوام • وهذا ما يؤيده التباين فى سياسة الحكومة البريطانية أزاء فلسطين عند صدور الكتاب الابيض ، وسياستها فى عام ١٩٣٠ • وكان البريطانيون يبدون حذرا متزايدا كلما اقترب اليهود من نقطة التحول التى تجعلهم يصبحون أكثرية بالنسبة الى عرب فلسطين • ففى السنوات الاولى من عهد الانتداب ، وقبل ان يتولى هتلر حكم المانيا ، كان مجال الهجرة الى فلسطين واسعا دون ثمة خوف من طغيان عدد اليهود على عدد العرب من سكان البلاد • لكن الامر اختلف اختلافا كبيرا بعد ذلك بعشر سنوات • فقد أخذ خطر الهجرة يتفاقم ، حتى بلغ أمرها مرحلة دقيقة تدعو الى صدور قرار سريع • فقد أعلنت اللجنة الملكية فى سنة ١٩٣٦ ان صك الانتداب أصبح غير قابل للتنفيذ ، لانه يتعذر اتباع سياسة تحقق الوطن القومى اليهودى ، وفى الوقت ذاته يمكن انماء المؤسسات ذات الحكم الذاتى • اما مشروع التقسيم وان لاقى تأييدا كبيرا ، فقد تحطم على الصخرة التى تحطم عليها

مشروع اللجنة الخاصة لهيئة الامم المتحدة ، أى تعذر تنفيذه الا باستعمال القـوة •

وهناك مشاكل أخرى كانت الحكومة البريطانية مضطرة لمجابهتها • أهمها وجود عناصر متطرفة فى المنظمة الصهيونية وفى الوكالة اليهودية تسعى بكل ما أوتيت من قوة ، وبأى ثمن كان ، لان تجعل من فلسطين دولة يهودية • ومما لا شك فيه ان تلك العناصر ، ساعدت كثيرا للقضاء على الوعود التى كانت المنظمة الصهيونية تقدمها للسلطات البريطانية فى فلسطين لتنفيذ السياسة التى اختطها الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ ، بتشجيعها ـ أى العناصر المتطرفة ـ بصورة فعالة علنية أم مستترة الهجرة اليهودية غير المشروعة • والمشكلة الاخرى ان الولايات المتحدة وعصبة الامم كانت تضغطان ضغطا شديدا من أجل تحقيق الاهداف اليهودية دون ان تتحملا مسؤولية النتائج الناجمة عن ذلك الضغط • فمثلا ان عطف حكومة الولايات المتحدة على القضية الصهيونية جعلها تقرر اعفاء مدخولات المنظمات الصهيونية الخيرية والجمعيات اليهودية من ضريبة الدخل ، مع علمها بان تلك المنظمات والجمعيات كانت تجمع التبرعات من سكان الولايات المتحدة لتنفقها على أعمال الارهاب ضد السلطات البريطانية فى فلسطين • ومع ذلك فانها كانت ترفض استعمالها القوة لغرض السياسة التى كانت ترتضيها • وقد دامت سياسة الولايات المتحدة هذه مدة الانتداب • ومما يجب الا يغفل ان الامر تعقد كل التعقيد فى آخـر ايام الانتداب عندما رفضت بريطانيا بدورها استعمال القوة لغرض التقسيم بينما كانت روسيا مستعدة لذلك ، والعامل الرئيسى الذى جعل هيئة الامم ترفض استعمال روسيا القوة لغرض تحقيق التقسيم تخوفها من ان يكـون مصير فلسطين اشبه بمصير ازربيجان •

ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان المشاكل التى كانت تلازم القضية الفلسطينية ستبدو للعيان بوضوح وجلاء فى السنوات القادمة • وعندئذ سيكون الحكم على تصرفات الحكومة البريطانية والسلطات البريطانية فى فلسطين ، أقل قساوة مما هو عليه الان ، ولا سيما الحكم الصادر من الصهيونيين ومن مؤيديهم • وسوف ينال الموظفون البريطانيون بعض التقدير لما قاموا به من أعمال ، مع ما كانوا يلاقونه من مصاعب ناجمة عن جهلهم حقيقة السياسة التى يجب أن يتبعونها ومن نقد شديد كان الصهيونيون يوجهونه للسياسة البريطانية ، وأخيرا من خطر نشوب حركات ثورية فى بعض الاقطار العربية أو ان يقوم اليهود بتلك الحركات • ومن المؤسف حقا ان اليهود كانوا ينشرون دعايات واسعة عما يلقونه من تعنت من قبل السلطات البريطانية فى فلسطين ، وكانت تلك الدعايات تنطلى على الكثيرين من سكان مختلف أقطار العالم بينما كان العالم لا يعرف عن الخدمات الجلى التى قامت بها السلطات البريطانية فى فلسطين كقضائها على الملاريا ، وقيامها بما خفض نسبة الوفيات الى حد كبير ، واقامتها مشاريع اسالة مياه الشرب الصالحة ، واصلاحها الاساليب الزراعية ، وزراعتها للغابات ، ونشرها التعليم بين العرب من السكان ، وتشجيعها الصناعات الخفيفة خلال سنوات الحرب ، تلك الصناعات التى استفادت ولا زالت تستفيد منها اسرائيل كل الفائدة • هذا وان باحث المستقبل سيكتشف بدهشة بالغة الفرق الكبير بين ما أظهرته لجنة الانتداب من صرامة نحو سلطة الانتداب وما أظهرته هيئة الامم من استكانة وتخاذل بعد عشر سنوات ، عندما طلب اليها أخذ المسؤولية على عاتقها • كما سيتضح له الفرق الكبير بين ما كان يظهره الصهيونيون من احترام نحو عصبة الامم ومن عدم اكتراث لقرارات هيئة الامم •

- ١٤ -

ان العلاقات المتبادلة بين الدول العربية التى لم تراع فى عام ١٩٤١ ، اصبحت حقيقة واقعة فى عام ١٩٤٥ ، وان كانت فى الاسم على الاقل • ففى عام ١٩٤٥ وضعت الاسس لايجاد الجامعة العربية ، وفى هذا العام وقعت مصر والعراق وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن ميثاقها • ولما كان عرب فلسطين غير مستقلين فلم يكن لفلسطين مجال الانضمام الى الجامعة باعتبارها غير مستقلة ، واكتفى بتعيين مراقب عن فلسطين فى مجلس الجامعة • وقد رحبت الحكومة البريطانية بتأليف الجامعة وعينت موظفا من كبار موظفيها ليكون حلقة ارتباط بينها وبين الجامعة • وهكذا تم تحقيق فكرة الامير فيصل بتأليف الجامعة العربية بعد ان مر ربع قرن على الطلب الذى قدمه الى مؤتمر السلام المنعقد فى باريس ، والذى يتضمن ازالة الحدود الداخلية بين الاقطار العربية ، واعتبارها دولة واحدة ذات خطوط مواصلات مشتركة ونظام تعليمى موحد • على ان الجامعة العربية صرفت جل عنايتها للقضايا السياسية وخاصة منها قضية فلسطين ، دون ان تعنى العناية اللازمة بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية المشتركة بين الاقطار العربية • فلما انتهت القضية الفلسطينية النهاية المعروفة لم يبق للجامعة العربية ما تبذل عنايتها من أجل تحقيقه •

وحددت العلاقات مع شرق الاردن سلسلة من الاتفاقات والمعاهدات بدأت منذ عام ١٩٣٨ ، وفى عام ١٩٤٨ عقدت المعاهدة الاردنية البريطانية ، وقد نصت هذه على أمرين وجود اتفاق عسكرى بين بريطانيا وشرق الاردن ، وتقديم مساعدات مالية بريطانية لاجل انماء البلاد اقتصاديا واجتاعيا • وفى

نيسان من عام ١٩٥٠ اضطرت بريطانيا الى الاعتراف باسرائيل اعترافا كاملا ، وبالوقت ذاته ارتضت أن يعتبر القسم العربى من فلسطين جزءا متمما لشرق الاردن ، الدولة التى أوجدها الملك عبدالله • كما وافقت على ان تشمل المعاهدة البريطانية الاردنية الجزء الجديد الذى ضم الى شرق الاردن • وبعد ضم الجزء غير المحتل من فلسطين الى شرق الاردن سميت المملكة بالاردن بدلا من شرق الاردن • وبقيت قضيتان فى حاجة الى الحل السريع الوضع الراهن لمدينة القدس والحدود المشتركة بين اسرائيل وجيرانها • (فى الظروف الحاضرة تحددها خطوط الهدنة) • ولا يمكن ان تحل هاتان القضيتان الا باتفاقات متبادلة بين الدول المعنية بالامر •

وكمحاولة للتخفيف من وطئة تأزم الوضع بين اسرائيل والدول العربية ، أصدرت حكومات بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية فى مايس من عام ١٩٥٠ ، بيانا مشتركا اعترفت فيه بحاجة هذه الدول الى السلاح من أجل استتباب الامن الداخلى ، والدفاع عن سلامتها ، والمساهمة فى الدفاع عن سلامة الاقليم برمته • ولهذا فانها تعهدت باستعدادها ، على ضوء تلك الحقيقة ، للنظر بأى طلب للسلاح تتقدم به أية دولة من ذلك الاقليم ، على ان تتعهد الدولة الراغبة بالسلاح بالا تستخدم ما تحصل عليه منه للاعتداء على دولة أخرى • وانتهى البيان بالتنويه عن عزم الدول الثلاثة صاحبة البيان بانها ستتخذ الخطوات الفعالة لمنع أية محاولة تقوم بها احدى دول الاقليم يقصد منها تغيير حدود بلادها أو تغيير خط الهدنة بينها وبين القطر المجاور لها •

ومما اتضح للحكومة البريطانية ، ان تدويل القدس حسب ما قررته الهيئةالعامة للامم المتحدة أمر يتعذر تطبيقه لان حكومة اسرائيل ، فى الوقت الذى أخذت تعد القسم المحتل من المدينة ليكون عاصمة لها طلبت ان يعهد أمر

حراسة الاماكن المقدسة الى لجنة تنتدبها هيئة الامم على الا يكون لهذه اللجنة صفة ادارية • وهذا ما يكشف عن نواياها •

- ١٥ -

وقد فشلت جميع المحاولات السياسية التى بذلت من أجل اتحاد الدول العربية ، والتغلب على الخلافات الشخصية والعائلية بين ملوك وحكام هذه الدول ، وتحقيق رغبات شعوبها فى الاتحاد ؛ تلك الرغبات التى بلغت حدها الاقصى عند الجيل الجديد من ابنائها • ومع ان الاقطار العربية تدرك تمام الادراك ان التعاون الاقتصادى هو خير تمهيد لتحقيق رغبة شعوبها ، فانها لا تسعى لتحقيق ذلك التعاون • فسوريا ولبنان ضاعفا من القيود الاقتصادية التى تباعد بين بلديهما ، مع وجود مصالح اقتصادية متبادلة بينهما ، وان انابيب النفط التى توصل نفط العراق حتى شواطىء البحر المتوسط ونفط المملكة العربية السعودية الى صيدا فى لبنان يجب ان توجد فى هذه الاقطار مصالح متبادلة بين بعضها البعض • وبينها وبين بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية من أجل سلامة أقطارهم وانماء مصادر أخرى للثروة فى الشرق الاوسط •

ان الشرق الاوسط بمختلف أقطاره ، فى حاجة ماسة الى المعاونة من أجل انما موارد الثروة فيه • فأى من أقطار هذا الاقليم يحتاج الى المعونة لانماء ثروته وللرفع من مستوى معيشة سكانه ، يجب ان يلقاها من الاقطار الاخرى • والحقيقة ان مشاكل أقطار الشرق الاوسط تلقى عناية كبيرة من الهيئات والمؤسسات المنبثقة فى هيئة الامم • ويكفى ان تكون مشكلة اللاجئين الفلسطينيين موضع دراسة وعناية من لدن لجنة اغاثة اللاجئيين التابعة الى هيئة الامم والممثلة فيها بريطانيا والولايات المتحدة • وفى السنوات المتأخرة ،

أخذت الولايات المتحدة الاميركية تعنى عناية كبيرة بشؤون الشرق الاوسط • ولهذا فانها أكثرت من ارسال الخبراء الاميركان الى مختلف اقطاره ، وخير ما يثبت ذلك عنايتها بانماء المشاريع الزراعية فى المملكة العربية السعودية ، واهتمامها بمشروع السنوات السبع الذى يهدف الى انماء الاحوال الاقتصادية فى ايران • كذلك ان الخدمات التى قام بها مركز تموين الشرق الاوسط ، خلال سنوات الحرب ، لا زالت مستمرة وان تبدل اسمه بالمكتب البريطانى للشرق الاوسط • فان خبراء هذا المكتب تحت أمرة أية حكومة من حكومات الشرق الاوسط ترغب فى الاستفادة من خبراتهم • والواقع ان هذا المكتب ساهم فى خدمة الحكومة العراقية عندما رغبت فى وضع منهاج عام لمشاريع الرى فى العراق • كذلك قام المكتب بتزويد حكومات الشرق بتقارير ضافية عن كيفية اصلاح الغابات وانماء الموارد الحيوانية وطرق اجراء الاحصاءات اللازمة لها وغير هذه من القضايا الهامة لبلادها • كما ان المكتب يتلقى بصورة مستمرة طلبات كثيرة عما يجريه من دراسات تتعلق بأقطار الشرق الاوسط • وقد أجرى المكتب مفاوضات مع حكومة اليمن فى عام ١٩٥٠ ، كان يؤمل منها ، اضافة الى توطيد العلاقات السياسية بين بريطانيا واليمن تقديم المعاونة الفنية التى يحتاجها اليمن •

ومن الامور الواضحة ان المكتب البريطانى فى الشرق الاوسط قدم خدمات جلى حيثما كان النفوذ البريطانى كبيرا • ففى البحرين مثلا استطاع شيخها القضاء على استغلال اصحاب السفن لغواصى اللؤلؤ من أثر اغراقهم فى الديون ، نتيجة للجهود التى بذلتها بريطانيا عن طريق المكتب المذكور • وبدأ باصلاح الاوضاع الراهنة فى البلاد التى تخضع الى الحكم البريطانى المباشر ، فأخذ مستوى معيشة سكان هذه البلاد بالارتفاع ، اما عن طريق

استخدام مصادر الثروة فيها ، واما بمساعدة صندوق اصلاح المستعمرات وانماء مواردها[1] • ففى مستعمرة عدن أخذت حركة التعليم والخدمات الاجتماعية تنتشر بسرعة حتى شملت محمية عدن ، بما فيها من أوضاع متدنية • وذلك بفضل تمديد مدة الهدنة التى عقدت عام ١٩٣٦ ، والتوسع المستمر فى قوات الامن عند مختلف حكام تلك المحميات • فصار من أثر ذلك ان ساد الامن والاستقرار البلاد بشكل لم يعرفه الناس من قبل ، وأخذت حركة بيع الرقيق ، التى قضى عليها منذ عهد بعيد فى مستعمرة عدن ، تتضائل وتختفى فى المحمية نفسها ، الا ان المعضلة الرئيسة التى لا زالت قائمة ولم يستطع المكتب التغلب عليها هى كيفية جعل أرض مجدبة تدر ما يكفى حاجات شعب متزايد ، لا يجد مخرجا لابنائه ، كما كان يجد سابقا فى جاوا والحبشة وغيرهما من الاقطار التى كانت تتقبلهم • ولم يكتف فى قبرص بانماء نظام زراعى تعاونى ، وانما وضعت تصاميم من أجل وقاية ما زرع من غابات من خطرين : وقايتها من قطعان العنز الباحثة عما تتغذى به ، ووقايتها من الانسان فى بحثه عن الوقود • ولقد ارسل عدد من حكومات الشرق الاوسط خبراء يعنون بهذه المشاكل لدراسة تلك المشاريع التى لو انتشرت فى مختلف انحاء الاقليم لاثرت تأثيرا بالغا بأوضاعه الاقتصادية

---

(١) Colonial Development and Welfare Fund.

اكتوبر من عام ١٩٥٢

- ١ -

لم تضم معاهدة حلف شمال الاطلسى أى جزء من أجزاء الشرق الاوسط مع ان المعاهدة أكدت تأكيدا مشددا على أهمية هذا الاقليم ، تلك الاهمية التى أدركت حقيقتها بريطانيا منذ أكثر من قرن ونصف قرن ، بينما لم تتثبت الولايات المتحدة الاميركية منها الا فى السنوات المتأخرة عندما أخذت بتقديم مساعداتها الى تركيا وايران ، وبعدما أصدرت بيانها بشأن ضمان الحدود بين اسرائيل والاردن ، وفى مايس من عام ١٩٥٠ أكد وزير خارجية بريطانيا ما سبق ان صرح به منذ عام ، بعد ان وقع معاهدة حلف شمال الاطلسى ، بان الحكومة البريطانية تهتم كل الاهتمام بالمحافظة على سلامة كل من اليونان وتركيا وايران واستقلالها • وأضاف بان « الحكومة البريطانية عازمة على متابعة سياستها بشأن معاونة تلك الدول وغيرها من التى تكافح فى سبيل تدعيم كيانها الاقتصادى وتعزيز قواتها العسكرية ، ومن أجل المحافظة على استقلالها وسلامة بلادها » • كما صرح وزير خارجية الولايات المتحدة الاميركية عند توقيعه المعاهدة نيابة عن حكومته تصريحا مماثلا •

وفى ايلول عام ١٩٥١ قرر مجلس حلف شمال الاطلسى دعوة كل من

تركيا واليونان للاشتراك فى معاهدة الحلف على ان يسبق ذلك موافقة الدول الاعضاء • وبعد هذا بقليل اشتركت الحكومة التركية مع حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فى طلبهم الى مصر المساهمة فى تأليف منظمة للدفاع المشترك عن الشرق الاوسط • وسبق ان طلب مثل هذا الطلب الى كل من استراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقيا ، وكانت حكومات هذه الاقطار تهتم بالغ الاهتمام بأمر ايجاد مثل تلك المنظمة • على انه لم يطلب الى أقطار الشرق الاوسط الاخرى المساهمة فى المنظمة • ومرد ذلك ان هذه الاقطار قريبة من موقع الخطر وان خط الدفاع يجب ان يكون بعيدا عن ذلك • ومع هذا فان اقطار الشرق الاوسط أبدت حذرها ولم تكشف عن حقيقة نواياها بشأن ما طلب ايجاده • اما مصر فقد رفضت المقترحات الخاصة بمنظمة الدفاع المشترك ، كما عزفت عن اجراء أية مباحثات من أجل تحقيق تلك الفكرة ، كذلك رفضت فى عام ١٩٥١ حضور مؤتمر نيروبى الخاص بشؤون الدفاع عن افريقيا ، وكان يؤمل من حكومة مصر بنزعتها العسكرية الشديدة ، انها ستظهر رغبة شديدة للمساهمة فى مشاريع الدفاع التى يسعى الغرب لوضع تصاميمها •

وفى خلال العامين التاليين اضطرت بريطانيا الى ان تجابه مشكلتين كبيرتى الاهمية الاولى علاقتها مع مصر والاخرى مصالحها فى ايران •

ففى أوكتوبر من عام ١٩٥١ ، وبعد محادثات دامت نحو عام ، الغت الحكومة المصرية معاهدة سنة ١٩٣٦ كما ألغت اتفاقية عام ١٨٩٩ بشأن السودان • فاطلق الملك فاروق على نفسه لقب ملك مصر والسودان ، وأصدرت الحكومة المصرية قانونا يمنح السودان نوعا من الحكم الذاتى ويخول الملك فاروق حق السيطرة على شؤون السودان الخارجية والعسكرية ، وحق التصديق

على ما يشرع فيه من قوانين • كما أوجب ضرب عملة السودان باسم ملك مصر • وأعقب ذلك ان رفضت الحكومة المصرية المقترحات التى قدمتها اليها الولايات المتحدة الاميركية بالاشتراك مع بريطانيا وفرنسا وتركيا ، والتى طلبت بها الى مصر ان تساهم فى تأسيس منظمة للدفاع عن الشرق الاوسط • وقامت حكومة الوفد بدعايات اعتدائية واسعة ، وبتحريض كتائب التحرير للاعتداء على الجيوش البريطانية وعلى المدنيين • وبلغت تحرشات تلك الكتائب ذروتها عندما قامت مظاهرات واسعة فى القاهرة ، اعتدى فيها الوطنيون على كثيرين من الاجانب أغلبهم من البريطانيين ، واحدثوا أضرارا بالغة بالممتلكات وان لم يكن أكثرها بريطانى أو غير مصرى •

وتوقفت المحادثات بين الحكومة المصرية الجديدة والوفد السودانى الذى أرسله السيد عبدالرحمن المهدى لمفاوضة الحكومة المصرية بشأن مستقبل السودان ، أثر نشوء أزمة أدت الى تنازل الملك فاروق عن عرشه • وكان السودانيون غير مقتنعين بان جعل ملك مصر ملكا للسودان ذا مظهر اسمى ، كما انهم كانوا مستعدين لتقبل مشروع يقضى بتأليف لجنة ثلاثية يشترك فيها ممثلون من بريطانيا والسودان ومصر يعهد اليها أمر مراقبة عملية تقرير المصير فى السودان ، وبالوقت ذاته كان المصريون يخشون ان يؤدى انفصال السودان عن مصر الى احتجاز الجزء الاكبر من مياه النيل ، وان ما سيتسرب من تلك المياه الى مصر لا يكفى لحاجات الشعب المصرى السريعة المتزايدة •

وكان اعداد السودان للحكم الذاتى الدستورى يجرى بسرعة ، استجابة للوعد الذى قطعه المستر ايدن فى شهر تشرين الثانى عام ١٩٥١ بان السودان سيمنح الحكم الذاتى قبل نهاية عام ١٩٥٢ ، ومما جاء فى مسودة الدستور

المقدمة الى المجلس التشريعى السودانى فى نيسان من عام ١٩٥٢ ، ان جميع الوزراء مسؤولون أمام البرلمان وان تراعى بعض التحفظات خلال فترة الانتقال ريثما يتم للسودانيين ممارسة حق تقرير مصيرهم ، وان يؤلف مجلس تأسيسى يضم أعضاء مجلسى البرلمان عند مناقشة الدستور واقراره وتحديد مستقبل السودان •

- ٢ -

ولم تعدل اتفاقية عام ١٩٤٩ ، المعقودة بين شركة النفط الايرانية والحكومة الايرانية • بسبب اصرار الايرانيين على طلبهم حصة أكثر مما يستحقون ، ورفضهم مبدأ المناصفة بالارباح المبدأ المعمول به فى أقطار الشرق الاوسط الاخرى • فالايرانيون لم يكتفوا بنصيبهم من ربح الشركة الخاص بنفط بلادهم بل طالبوا بمقاسمة الشركة فى جميع أرباحها حتى عما تستخرجه من نفط الكويت مثلا • ومما يجب الا يغفل ان الشركة وافقت على منح ايران نصف ارباحها عن النفط الايرانى فى شباط من عام ١٩٥١ ، ولكن رئيس وزرائها ، الجنرال رازمارا ، لم يسمح بنشر ذلك ، ولم يكن الجمهور الايرانى على بينة من ذلك الامر عندما اغتيل رئيس الوزراء فى مارت من العام المذكور • ومما لا ريب فيه ان اغتيال رازمارا ، واطلاق النار على وزير المعارف عجل فى تصديق البرلمان على اقتراح قدمه الدكتور مصدق يقضى بتأميم صناعة النفط فى ايران •

ولم تعترض الحكومة البريطانية على مبدأ التأميم بشرط ان تراعى اتفاقية عام ١٩٣٣ عند تنفيذه • تلك الاتفاقية التى نصت على تعهد الحكومة الايرانية بعدم الغاء أو تعديل الاتفاقية الا بموافقة الطرفين المتفقين ، وانه فى

حالة حصول خلاف على نصوص الاتفاقية يرجع الى التحكيم • وهذا ما جعل الشركة تطالب بالرجوع الى التحكيم ، الا ان الحكومة الايرانية رفضت طلب الشركة وأصرت على ما ذهبت اليه • كما انها رفضت ثلاثة اقتراحات أخرى هى : (١) الاقتراحات المقدمة من شركة النفط الايرانية فى حزيران من عام ١٩٥١ والتى أيدها سفير الولايات المتحدة الاميركية وهو المعروف بشدة نقده للسياسة البريطانية • (٢) اقتراحات ستوك المقدمة فى شهر آب سنة ١٩٥١ والتى اوصى بها المستر افيريل هاريمان • (٣) ومقترحات البنك الدولى للاعمار والانماء المقدمة فى مارت سنة ١٩٥٢ •

وقد اضطرت الحكومة البريطانية الى ان ترفع القضيـة الى مجلس الامن ، وسبق لها ان رفعت القضية فى أولى مراحلها الى محكمة العـدل الدولية ، والتى أصدرت أمرها بوجوب المحافظة على الوضع الراهن • فقرر مجلس الامن ضرورة الانتظار ريثما تصدر محكمة العدل الدولية قرارها النهائى بشأن الخلاف • وفى تموز من عام ١٩٥٢ أعلنت المحكمة ان القضية المتنازع عليها ليست من اختصاصها ، ولهذا لا تستطيع ان تبدى رأيا قاطعا بشأنها • الامر الذى اضطر الشركة الى ان تتقدم بطلب الى رئيس محكمة العدل الدولية طالبة منه ان يستعمل اختصاصه الذى منحته اياه اتفاقية عام ١٩٣٣ فيعين محكما ، ما دامت الحكومة الايرانية ترفض تعيين محكم يمثلها حسب نصوص تلك الاتفاقية •

والسبب فى رفض ايران اتفاقية عام ١٩٤٩ ، اعتقادها بان الاخذ بمبدأ المناصفة بالارباح يضر مصلحتها فى السنوات الكثيرة الانتاج • ولو تم لها قبول ذلك المبدأ فى شباط من عام ١٩٥١ لتيسر لها الحصول على خمسين مليون جنيه عوائد للنفط عن تلك السنة وحدها ، اضافة الى مبالغ كبيرة أخـرى

ستضطر الشركة الى دفعها عن مبالغ متأخر دفعها ، ورواتب المستخدمين وأجور العمال وضرائب حكومية • والحقيقة ان الخلاف على النفط لم يكن مشكلة مالية ؛ فالعامل الرئيسى لتلك المعضلة هو نفرة الشرق من سيطرة الغرب التى دامت مدة طويلة • وقد تركزت تلك النفرة فى ايران على بريطانيا لعلاقتها الوثقى بصناعة النفط • يضاف الى ذلك ان تنظيم أعمال شركة النفط ، واقتصار ادارة تلك الاعمال على الاجانب وحدهم ، وتفسخ المؤسسات الايرانية بالنسبة الى مختلف مؤسسات الشركة ، اضعف كبرياء ايران وجعلها مسرحا لدعايات غير صحيحة أثرت بجمهرة الناس ، وجعلتهم يعتقدون بانه ليس عسيرا على الايرانيين ادارة تلك المنشئات • وربما كان ميل الحكومة الايرانية للوقوف موقف المحايد بين المعسكرين الغربى والشرقى كان من أهم تلك العوامل • فان قانون سنة ١٩٤٤ منع منح أى امتياز للنفط فى المستقبل ، وبذلك سد الطريق بوجه الروس ؛ فلماذا لا يتخذ الدكتور مصدق خطوات جريئة من أجل سد الطريق بوجه شركة النفط الايرانية ، دون الالتفات الى الحقوق المشروعة التى تتمتع بها هذه الشركة ، وقد فاز الدكتور مصدق فى أول أمره بتأييد ساحق من زملائه اصحاب الثروات الكبيرة الذين كانوا يتهربون من دفع ما يفرضه القانون عليهم من ضرائب ، وكذا الامر من اعضاء حزب تودا الذين اخفوا ميولهم الشيوعية وراء ما كانوا يشيعونه من دعايات عن استغلال الاجانب لخيرات البلاد ، ومن رجال الدين أمثال آية الله الكاشانى ، الذى اعتقل خلال سنوات الحرب العالمية الثانية لميوله المناهضة لقضية الحلفاء ، والذى هدد بالاغتيالات السياسية وشجع عليها ، وأخيرا من جمهرة الناس التى كانت تفهم بان ما تعانيه من مآسى ومصائب هو من نسج البريطانيين ، متناسين ان تلك المآسى هى وليدة تفسخ

الطبقة الحاكمة وسوء ادارتها لشؤون البلاد واهمالها مصالح الشعب .

اما طبقة السياسيين فقد كانت تزعم ان شركة النفط تسيء معاملة عمالها ، وتدفع لهم أجورا تكاد تسد حاجتهم ، مع ان بعثة منظمة العمل الدولية التى قامت بدراسة وضع عمال الشركة فى سنة ١٩٥٠ ، اوضحت خلاف ذلك . فمما انتهت اليه اللجنة المذكورة ان الاجور التى كانت تدفعها الشركة الى عمالها، وساعات عملهم ، والظروف التى تكتنف العمال اثناء قيامهم بواجباتهم كانت فى مستويات أعلى من تلك التى يحددها قانون العمال الايرانى . ولا ريب ان ما قامت به الشركة فى حقول الصحة العامة ، والاسكان والخدمات الطبية والتموين والفعاليات الاجتماعية ، وفى حقول غير هذه من الخدمات العامة الاخرى لمما يدهش الساسة الايرانيين اذا ما اجهدوا أنفسهم وحاولوا الاطلاع عليها . وفى حقل التربية والتعليم فان المدارس التى أنشأتها الشركة ، لا تقل مستوى عما تتمتع به أحسن المدارس الايرانية . كذلك ان الطريقة التى اتبعتها الشركة من أجل تقنين مواد الطعام لجميع مستخدميها وعمالها ولمن تتوقف معيشتهم عليها ، كانت من ادق واضبط ما اتبع من طرق خلال الحرب العالمية الثانية . ولهذا فانها أظهرت للعيان فشل الحكومة الايرانية فى اتباع طريقة لتقنين المواد الضرورية لمعيشة الشعب ، مع كل ما بذله الخبراء الاميركان من جهود لمساعدة الحكومة فى قيامها بتوزيع بعض اللوازم الرئيسية توزيعا عادلا بين الناس .

وما ان انتهى امد امتياز « البنك البريطانى فى ايران والشرق الاوسط »[1] ، حتى اضطر لغلق ابوابه وتوجيه فاعلياته نحو اقطار أخرى من الشرق الاوسط ، حيث المجال واسع لممارسة أعماله .

---

(١) كان يسمى سابقا البنك الامبراطورى فى ايران .

ولم ينته الامر عند هذا الحد ، فان موجة مناوئيي بريطانيا فى ايران دفعت الحكومة الايرانية الى طلب غلق القنصليات البريطانية فى المدن الايرانية، بزعم ان أعضاء السلك القنصلى يتدخلون بالشؤون الداخلية الايرانية ، مع ان الحقيقة تدحض هذا الزعم ، وأخذت تتعالى أصوات المتصيدين بان البريطانيين أخذوا يحرضون القبائل على التمرد ، مع ان المعروف عن القبائل الايرانية انها لا تخضع لقانون ولها من مشاكلها ما يدفعها للتمرد على حكومتها ، ومما لا شك فيه انه لم يكن بصالح بريطانيا ان ترى الحكومة المركزية ضعيفة أزاء الحركات الداخلية •

وفى اكتوبر من عام ١٩٥٢ قامت بريطانيا بآخر محاولة لايجاد حل لمشكلة النفط عندما قدمت مذكرة الى الدكتور مصدق وقد اوصى كل من المستر ترومان والمستر شرشل الاخذ بها • وقد اعترفت تلك المذكرة بحق ايران بتأميم صناعة النفط بشرط ان تعرض قضية تعويض الشركة الى التحكيم باشراف محكمة العدل الدولية • وقد قبل الدكتور مصدق الاخذ بالتحكيم مشترطا ان يقتصر التحكيم على ممتلكات الشركة فى ايران ، ومع ذلك فانه وضع من القيود ما يجعل المحكمين يضطرون الى اصدار حكم مؤيد لوجهة نظر ايران • وبعد ان وجد الدكتور مصدق ان الحكومة البريطانية لا تقره على شروطه ، قام فى شهر اكتوبر بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا ، ظانا ان بريطانيا سترضخ الى ما اتخذه من اجراءات خشية نفوذ الشيوعية الى ايران •

ان ما يؤسف له الميل العدائى الذى أظهره الايرانيون نحو بريطانيا ، لا لانه يعكر صفو العلاقات البريطانية الايرانية ، وانما يشجع ذلك الميل

الايرانيين لان يستسلموا الى ما كانوا يتصورونه سابقا ، بان كلما يصيبهم من كوارث انما هو من صنع بريطانيا . واذا ما صح زعمهم بان المساوىء نتيجة الاخطاء التى ترتكبها بريطانيا ، فلماذا لا يسعون الى التغلب على تلك المساوىء ؟ .

obeikandl.com

الخاتمة

علاقة بريطانيا بالشرق الاوسط علاقة تاريخية وثيقة ، ومع ان علاقات ايطاليا وفرنسا التجارية ، ترجع الى ابعد من تاريخ بدء العلاقات البريطانية به ، فان هذا الجزء من العالم بالنسبة الى بريطانيا يعنى أكثر من تأمين مصالحها التجارية • فالشرق الاوسط قاعدة تدافع بريطانيا منها عن ممتلكاتها بالشرق وعن خطوط مواصلاتها • ولو رجعنا الى المؤلفات الانكليزية لوجدنا ان العديد منها تطرق الى تلك العلاقة • وربما كانت الدوافع لاكثر تلك المؤلفات دوافع سياسية وتجارية • ولكن بعضها جاء نتيجة حب الرجل البريطانى الى الاسفار والارتياد • فهذه الرغبة الملحة هى التى دفعت اثيلارد وفلبى ، الى ارتياد الشرق الاوسط والى اخراج ما الفوه من كتب ، كما دفعت كنج ليك قبلهم الى قيامه فى سنة ١٨٣٠ « برحلته العظيمة » الى الشرق واخراجه كتابه الرائع ايوثين[١] •

والتفاوت كبير جدا بين تلك المؤلفات من حيث نوعيتها ومادتها ، كما ان الظروف التى دعت الى اخراجها متنوعة متعددة • فروبرت كرزن مثلا ، ارتاد الشرق فى عام ١٨٣٠ ايضا ، والف رسالته المسماة « زيارات لاديرة الشرق »[٢] ، نتيجة بحثه عن المخطوطات فى تلك الاديرة • وان هنرى ليارد الذى كان يقصد سيلان باحثا عن اسباب رزقه ، وجد فى نفسه اثناء

---

(١) Eothen by Kinq Lake

(٢) Visits to Monastries in the Levant By Robert Curzon

مروره فى ايران رغبة ملحة للبقاء فى الشرق الاوسط ، دفعته الى قيامه باكتشافات أثرية كبيرة الاهمية ، وبالتالى الى تأليفه عددا من المؤلفات القيمة • وقام هنرى راولنسون بحل رموز الخط المسمارى اثناء ما كان مقيما بريطانيا فى بغداد • والف أى• جى• براون وكان طالب طب تعلم الفارسية فأتقنها « عام بين سكان فارس » • وهذا يعد احسن ما كتب باللغة الانكليزية عن أى بلد اجنبى • وان ريشارد برتون كان جنديا وموظفا قنصليا ، أغرم بالاسفار غراما دفعه الى المجازفة بحياته لزيارة مكة والمدينة ، دون ما لاقاه من احداث فى مؤلف يعد اعظم ما سطر من كتب الاسفار • والقى جيمس موربير ، ومارمادوك بكتول ضوءا ساطعا على الشرق وأكسباه لونا بهيجا فيما كتباه عن « حاج بابا » و « سعيد السماك » • ولا ريب ان هاتين القصتين تعكسان صورة للشرق تعجز الكتب الاخرى عن عكسها •

وتعد المؤلفات التى كتبها رواد الاقطار العربية من الرحالة البريطانيين فى مستوى عام أعلى من مستويات المؤلفات الاخرى • ومع ان ثمة رواد من غير البريطانيين ـ من سكان سويسرة والدنمارك وهولندا والمانيا والسويد وغيرهم سطروا ما اضاف الى معارفنا عن بلاد العرب ، الا ان أهم ما نعرفه عن هذه البلاد هو من انتاج رواد بريطانيين • واذا ما كان « صحراء بلاد العرب »[1] من تأليف دوتى يحتل مقاما فى القمة بين المؤلفات عن الشرق ، فانه يعد واحدا من سلسلة طويلة من المؤلفات القيمة التى تناولت بلاد العرب ببحثها •

واذا ما قيل ان ثمة قوى تجتذب الانكليز نحو العرب ، ففى هذا القول الكثير من الصحة • فالموظف البريطانى فى فلسطين اتهم بأنه ميال

---

(١) Arabian Deserts by Doughty

الى الرياضة ويعوزه الذكاء ، وهذا ما جعله يندفع لمناصرة العرب دون اليهود مع ما يتمتعون به من ذكاء • ومع ذلك فان تركيا اجتذبت عددا كبيرا من الانكليز ، ولا نعنى بهم اولئك الذين جاءوا اليها لكى يستفيدوا من الامتيازات الاجنبية ، وانما نعنى فئة التجار وغيرهم ممن استقر وعاش فيها حتى فى أشد الايام ضيقا ، امثال السر مارك سايكس واوبرى هربرت • وثمة عدد كبير آخر من الموظفين والتجار ومستخدمى البنوك والتلغراف وشركات النفط من البريطانيين ، وجد فى ايران ما يشبع هوايته ورغبته • وآخرون أمثال صون وجدوا فى الاكراد ضالتهم • فبنظرهم ان الاكراد أحسن شعوب الشرق الاوسط خلقا •

ومن وراء مئات المؤلفات والمطبوعات التى نشرت عن الشرق الاوسط هناك معلومات كبيرة جدا لم تجد للنشر سبيلا ، كالتقارير التجارية والرسائل الخاصة • وربما وجدت بعض المعلومات القيمة فى تقارير الجمعيات التبشيرية ، التى استفاد المسلمون من خدماتها التعليمية والطبية فائدة كبيرة • والبعض الاخر من المعلومات مطمور بالتقارير الرسمية التى كتبها أناس اشتغلوا فى مصر أو العراق أو فلسطين ، أو اولئك الذين كانت مهمتهم خفر سواحل البحر الاحمر والخليج الفارسى ، والضرب على ايدى المهربين وتجار الرقيق أو مراقبة شواهد الاضائة واسلاك التلغراف • ومع ان الظروف تبدلت ، فان الدوافع التى تدفع الناس الى ارتياد اقطار الشرق الاوسط لا زالت باقية •

وقد ظلت ايران والعراق والخليج الفارسى ومن ورائها تركيا طوال قرن ونصف قرن قواعد للدفاع عن الهند ومراكز مراقبة للاشراف على خطوط المواصلات المؤدية الى الهند • ومع ما طرأ من تحول سياسى فى

القارة الهندية فى السنوات المتأخرة ، فان النظرة القديمة بالنسبة لخطوط المواصلات لا زالت قائمة • وحتى فى حالة انفصال الهند وباكستان وسيلان عن رابطة الشعوب البريطانية فان سيطرة دولة أخرى على أقطار الشرق الاوسط يعد كارثة بالنسبة لبريطانيا وللعالم الحر • يضاف الى ذلك ان الشرق الاوسط وجد مصدرا غنيا لثروته فى منابع النفط فى ايران والعراق والمملكة العربية السعودية • وكما كتب أحد خبراء النفط فى عام ١٩٤٤ « ان مركز ثقل انتاج النفط العالمى أخذ يتحول من الخليج الكريبى الى الشرق الاوسط ، وسيستمر بحركته حتى يستقر فى هذا الاقليم » • وان المتتبع لشؤون النفط منذ سنة ١٩٤٤ يؤيد هذه النبوءة تأييدا كاملا •

لقد كانت نسبة مداخر النفط العالمى فى سنة ١٩٤٣ كما يأتى :

الاقليم	النسبة المئوية
الشرق الاوسط	٤٨
اميركا الشمالية	٣١
أميركا الجنوبية وجزائر الهند الغربية	١٣
الاتحاد السوفياتى	٧
أقطار أخرى	١
المجمـوع	١٠٠

وتتضح أهمية هذه الارقام بالنسبة الى حياة رابطة الشعوب البريطانية من مقارنة جدول اصحاب امتيازات النفط فى الشرق الاوسط :

الامتيـاز	الامتيـاز
نفط جنوب ايران	بريطانى
نفط الكويت	نصفه بريطانى ونصفه اميركى

نفط البحرين	أميركى
نفط العراق ونفط امارات الخليج	ربع بريطانى
	ربع بريطانى وهولندى
	ربع اميركى
	ربع فرنسى بادارة بريطانية

وهكذا فان أربعة من الدول الموقعة على معاهدة حلف شمال الاطلسى وأبرزها بريطانيا والولايات المتحدة ، تضع يدها على جميع امتيازات النفط فى أقطار الشرق الاوسط .

ولا ريب ان قلة المدخرات النفطية الروسية هى التى دفعت روسيا الى استعمال العنف فى مفاوضاتها خلال الفترة بين عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٧ بشأن النفط الايرانى . وهى واثقة من انه فى حالة اكتشاف النفط فى شمال ايران ، فلن يكون المشروع مشروعا اقتصاديا ما لم يصدر الى روسيا أو عن طريق روسيا . والسبب ذاته جعل الشركات البريطانية والاميركية تعزف عن البحث عن تلك المصادر . ولم تكترث الحكومة البريطانية بتلك المفاوضات بادىء الامر ، ما دامت المفاوضات طبيعية لم يرافقها ضغط من أجل الحصول على الامتياز . على انها كانت على بينة من ان أى امتياز تحصل عليه روسيا فى شمال ايران فسوف يمكنها من الحصول على كميات كبيرة من النفط ، ويهىء لها الظروف الصالحة لصبغ ذلك الاقليم بالصبغة الشيوعية . وقد قضت ايران على الاطماع الروسية باصدارها قانون النفط الايرانى عام ١٩٤٤ .

ولا غرابة فى ان تطمع روسيا السوفياتية بمصادر جديدة للنفط ؛ فقد توسعت صناعاتها ، وتحولت زراعتها الى زراعة آلية ؛ وهرمت أهم حقول النفط فيها ـ حقول باكو . ولهذا فان وجود سلسلة من حقول النفط تمتد

من الحدود الروسية حتى قطر لما يثير الاغراء فى نفسها • فنظرة السوفيات الى نفط الشرق الاوسط ، واستعداداتهم العسكرية لما تثير مخاوف الغرب وشكوكه • سيما وان الاقطار التى تتلقى مساعدة مارشال تستطيع فى الظروف الراهنة ، الحصول على نصف ما تحتاجه من النفط من الولايات المتحدة الاميركية ومن منطقة البحر الكريبى • غير ان عالم الغرب يسعى للاحتفاظ بما تدره مداخره من نفط أكثر مما كان عليه سابقا ، لان استهلاكه للنفط أخذ يتزايد تزايدا خلال السنوات الماضية ، ولهذا فان على بريطانيا ودول مشروع مارشال ان تعتمد على جميع ما تحتاج اليه من نفط على الشرق الاوسط وحده • ولذا يصح ان يقال ان حدود بريطانيا لا تنته عند نهر الراين بل عند الشرق الاوسط • ولا يقصد بهذا القول تأمين المصالح البريطانية وحدها ، فان تحقيق ذلك يتطلب ان يكون الشرق الاوسط قويا بعيدا عن مؤثرات السوفيات • ومن الواضح ان تلك السياسة تتفق ورغبات حكومات تلك الاقطار وشعوبها ؛ كما انها تتمشى وأهداف هيئة الامم المتحدة • واذا ما سلمنا بان بريطانيا لا تهتم الا بصالحها ، فان سياستها كانت توجه دائما ، فى الماضى والحاضر ، نحو المحافظة على استقلال كل من تركيا وايران • ولم تتوقف عن اتباع هذه السياسة الا خلال الحرب العالمية الاولى ، عندما انضمت تركيا الى اعداء بريطانيا ، مما اضطرها الى ان تشترك مع فرنسا فى تقديمها الوعود الى روسيا لتسهيل احتلال استنبول واطلاق يدها فى شمال ايران ، بينما يترك القسم الوسطى والجنوبى فى ايران منطقة نفوذ بريطانى • ولو لم يتداع نظام الحكم فى روسيا وينته حكم ذلك الاتفاق ، لاضطرت بريطانيا الى احد امرين : اما ان تسمح لروسيا للنفوذ الى القسم الوسطى فالجنوبى من ايران ، أو ان تضطر للاذعان الى ما كانت تتحاشاه منذ عشرات

السنين ـ الاشتراك بحدود متجاورة مع روسيا على ما بينهما من آلاف الاميال •

ولا تقل سياسة روسيا نحو الشرق الاوسط ثباتا عن سياسة بريطانيا نحوه • فلولا فتك الاوبئة فى جيوش بطرس الكبير لاستطاعت اخضاع القسم الواقع على بحر قزوين من ايران الى الحكم الروسى مقابل ما أبدته روسيا من مساعدات لافغانستان • وان الملكة كاترين كانت تحاول طرد الاتراك من استنبول واحياء الامبراطورية البزنطية تحت التاج الروسى • وفى الحرب العالمية الثانية عندما كانت المباحثات تجرى من أجل عقد حلف يناوىء بريطانيا ، كانت الحكومة السوفياتية تشدد بطلب ما يأتى : (١) اقامة قاعدة لقواتها البحرية والحربية فى نقطة تقع بالقرب من البسفور والدردنيل ، (٢) السماح لها لان تجعل من المنطقة الواقعة جنوب باكو وباطوم ، باتجاه الخليج الفارسى منطقة نفوذ روسية • ويشبه هذا الطلب ما سبق ان نادى به الكاتب البولشفيكى ترويانوفسكى عام ١٩١٨ ، « وفارس بمثابة قناة السويس بالنسبة الى الثورة ••• ولهذا فان أول الاقطار التى يجب ان نحتلها من أجل نجاح الثورة الشرقية هى فارس » ، وتكرر طلب روسيا بشأن نفوذها الى تركيا فى مؤتمر بوتسدام ، ولكن بريطانيا والولايات المتحدة ، رفضتا ذلك الطلب • ومما لا يشك فيه ان الخلاف الروسى الايرانى بشأن النفط ، وبشأن قضية ازربيجان ، وان ما تنشره من دعايات من دور الاذاعة السوفياتية باللغات المحلية ، ذو علاقة وثقى بأطماعها لايجاد ممر لها تنفذ منه الى الخليج الفارسى يشمل أراضى تركية وايرانية وعراقية وكويتية • ومنذ ان كشفت روسيا عن نواياها بشأن الشرق الاوسط ، لم تبق بريطانيا المدافع الوحيد عن استقلال اقطار الشرق الاوسط • فبالاضافة الى الموقف الذى تقفه هيئة الامم بالنسبة

الى تلك الاطماع ، فان المساعدات الكبيرة التى تقدمها الولايات المتحدة الى تركيا وايران وحتى الى اليونان ادخلت الى هذا الاقليم عاملا ثابتا من عوامل القوة كبير الاهمية .

ولا يكفى ان يقتصر على ذكر الاتجاهات السياسية للدول العظمى بالنسبة الى الشرق الاوسط ، فان منظمة الامم المتحدة أخذت تعنى بشؤون هذا الاقليم . واذا ما بلغت الهيئة من القوة والتأثير ما يمكنها من الوقوف بوجه أطماع الطامعين بأقطار هذا الجزء من العالم فسوف تستطيع معالجة مشاكل الشرق الاوسط معالجة ناجحة . وقد يكون من صالح البشرية ان تضع منظمة الامم المتحدة يدها على جميع مصادر الطاقة فى العالم لكى تضع نهاية لتلك الاطماع . ولا ريب ان نفط الشرق الاوسط سيحتل المقام الاول من بين تلك المصادر ، كذلك سيوضع حد لمخاوف تركيا على المضايق اذا ما أوكل الاشراف عليها الى هيئة دولية ، أو اذا ما ترك لتركيا أمر الاشراف عليها بارشاد هيئة دولية . واتخاذ مثل هذا التدبير لقناة السويس من شأنه ان يضمن لمصر وبريطانيا مصالحهما على السواء ويفيد العالم كله .

مراجع الكتاب : ـ (مرتبة حسب الفصول)

1. Beazley, Sir R. The Dawn of Modern Geography (1897-1906)
2. Cunningham, Wm. The Growth of English Industry and Commerce (1910-38)
3. Hakluyt, Richard. The Principal Navigations, Voyages and Discoveries of English Nation (1589-1600)
4. Hodgkin, R.H. A History of the Anglo-Saxons (1936)
5. Kirk, G.E. A short Sistory of the Middle East (1938)
6. Curson, Lord. Persia and the Eastern Question (1898)
7. Epstein, M. Early History of the Levant Company (1908)
8. Foster, Sir Wm. England's Quest of Eastern Trade (1933)
9. Longrigg, S. Four Centuries of Modern Iraq (1925)
10. Purchas, Samuel. Purchas His Pilgrims (1926)
11. Wilson, Sir Arnold. The Persian Guf (1928)
12. Sykes, Sir Percy. History of Persia (1930)
13. Wood, A.C. History of the Levant Company (1935)
14. Graves, Philip. The Question of the Straits (1931)
15. Graves, Sir Robert. Storm Centres of the Near East, 1879-1929, (1933)
16. Hoskins, H.L. British Routes to India (1928)
17. Issawi, Charles. Egypt: An Economic and Social Analysis (1947)
18. Miller, Wm. The Ottoman Empire and its Successors, 1801-1927, (1927)
19. Wilson, Sir Arnold. The Suez Canal (1933)
20. Chirol, Sir Valentine. The Middle Eastern Question (1903)
21. Cromer, Lord. Modern Egypt (1908)
22. Graves, Philip. Life of Sir Percy Cox (1941)
23. Hardinge, Lord. The Old Diplomacy (1947)
24. Hubbard, G. E. From the Gulf to Ararat (1916) (Turco-Persian Boundry Commission)
25. Rayan, Sir Andrew. The Last of the Dragomans (1951)
26. Shuster, W. Morgan. The Strangling of Persia 1910-11 (1920)
27. Sousa, Nasim. The Capitulatory Regime of Turkey (1933)
28. Storrs, Sir Ronald. Orientation (1945)
29. Twitchell, K.S. Saudi Arabia (1946)

30. Wislon, Sir Arnold. South-West Persia
31. Cruttwell, C.R.M.P. A History of Great War (1934)
32. Hay, Sir W. Rupert. Two Years in Kurdistan 1918-1920 (1922)
33. Hourani, A.H. Syria and Lebonan (1935)
34. Lawrence, T.E. Seven Pillars of Wisdom (1935)
35. Lenczowiski, G. Russia and the West in Iran 1918-1948, (1949)
36. Official History of the War in Mesopotamia (four volumes)
37. Royal Institute of International Affairs. Great Britain and Egypt 1914-36 (1936)
38. Sykes, Christopher. Wassmuss (1936)
39. Wilson, Sir Arnold. Loyalteis, 1914-20 (1931)
40. Young, Major Sir H. The Independent Arab (1933)
41. Antonius, G. The Arab Awakening (1938)
42. Barbour, Neville. Nisi Dominus: A Survey of the Palestine Controversy (1946)
43. Beutwich, Norman. Palestine (1946)
44. Jeffries, J.M.N. Palestine. The Reality (1939)
45. Royal Institute of International Affairs — Great Britain and Palestine 1915-1945 (1937)
46. Sidebotham, H. Great Britain and Palestine (1937)
47. Weizmann. Trial and Error (1949)
48. Atiyah, Edward. An Arab tells his Story (1946)
49. Belhaven, The Master of the Kingdom of Melchior (1949)
50. de Goury, G. Arabia Phoenix
51. Elwaell-Sutton, L.P. Modern Iraq (1941)
52. Hyamson, A.M. Palestine under the Mandate 1920-1948, (1950)
53. Ingrams, Hawld. Arabia and the Isles (1942)
54. Ireland, P.W. Iraq: A Study of Political Development (1937)
55. Khadduri, Dr. Majid. Independent Iraq (1951)
56. Lloyd, Lord. Egypt Since Cromer (1933-34)
57. Longrigg, S. Iraq, 1900-1950
58. Macdonald, A.D. Euphrates Exile (1936)
59. Monroe, Elizabeth. The Mediteranean in Politics (1939)
60. Parkes, James. A History of Palestine from 135 A.D. to Modern Times (1949)
61. Philby, H. St. J.B. Arabian Days: An Autobiography (1948)
62. ————————. Arabian Jubilee (1952)

63. Rosevellt, Kernit. Arabs, Oil and History (1948)
64. Speiser, E.A. The United States and the Near East (1950)
65. Royal Commission — Report on Palestine (1937)
66. Report of a Committee set up to consider Certain Correspondence between Sir Henry McMahon and Sharif of Mecca 1915 and 1916. Cond. 5974 (1939)
67. Palestine: Statement of Policy-Cmd. 6019 (1939)
68. Groseclose, E. Introduction to Iran (1947)
69. Knatchbull-Hugessen Sir H. Diplomat in Peace and War (1949)
70. Millspaugh, Dr. A.C. Americans in Persia (1946)
71. Paiforce: The Official History of the Persia and Iraq Command 1941-46 (1948)
72. Royal Institute of International Affairs — The Middle East: A political and Economic Survey.
73. White Paper on Anglo-Egyptian Conversation on the Defence of Suez Canal and on Palestine (Nov., 29, 1951)
74. Egyptian Green Book.
75. Jewish Agency — The Jewish Case before Anglo-American Committee of Inquiry on Palestine (1947)
76. The Political History of Palestine under the British Administration.
77. Palestine: Termination of the Mandate, 15th. May, 1948.
78. Koesler, Arthur. Promise and fulfilment (1948)
79. Warriner, Doreen. Land and Poverty in the Middle East (1948)